
موسوعة
لبنان
تاريخ، سياسة وحضارة
من الصليبيين إلى المماليك



تاريخ سياسة وحضارة

بين الأمس واليوم

الجزء السادس

من الصليبيين إلى المماليك

لبنان وعصر النهضة

جوزف صقر

القسم الأوّل

من الصليبيّين إلى المماليك

الفصل الأوّل

بين السلاجقة والفاطميّين

السلاجقة في لبنان

بعد الفوضى والانحلال اللذين دبًا في جسم الدولة الفاطميّة، وتراخي سلطتها في بلاد الشام، بدأت الدولة السلجوقيّة بالسيطرة على العراق، ومدّ نفوذها على المناطق الخاضعة لحكم البيزنطيّين.

أمام هذا الأمر، وقع الشرق تحت سيطرة مزدوجة، شيعية، حيث الفاطميّون، وسنيّة حيث السلاجقة الذين يعودون بأصولهم إلى العرق التركي.

هذا الوضع أفسح في المجال أمام العديد من الطامحين، أو القادة المحليّين لإنشاء إمارات محليّة في صور، وطرابلس، وبعض مناطق الشام كدمشق، وحلب، وكذلك في فلسطين.

لكن أبرز تلك الإمارات كانت إمارة بني عمار في طرابلس.

إمارة بني عمّار

أسّسها أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار، وكان قاضياً لدى الدولة الفاطميّة، سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م). وانتقلت الإمارة بعد وفاته إلى ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي. وإليه يعود الفضل في توسع هذه الإمارة إلى جبيل في الجنوب، بعد السياسة المتوازنة التي انتهجها تجاه الفاطميّين والسلاجقة.

ويذكر ابن الأثير، في كتابه «الكامل» بأن السلاجقة عند دخولهم إلى الشام، ومهاجمتهم إمارة طرابلس، استولوا على حصن عرقة، وحاصروا طرابلس. لكن جلال الملك دفع فدية كبيرة، ولجأ إلى حيلة ادعى بموجبها، أن السلطان السلجوقي أقرّه على إمارته، فترك لحاله. وبعد وفاة جلال الملك، سنة ٤٩٢

هجرية (١٠٩٨م)، تسلّم الإمارة أخوه فخر الملك، وحكم حتى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٠م).

وحاول خلال فترة حكمه، أن يحافظ على استقلال المدينة، في وجه الهجمات الصليبيّة. لكن محاولته باءت بالفشل، إذ تمكّن الصليبيّون من دخول المدينة والسيطرة عليها في أواخر حزيران ١١٠٩. وتحوّلت إمارة طرابلس إلى كونتيّة تتمتّع باستقلال شبه كامل عن مملكة القدس.

إمارة بني عقيل

تأسّست هذه الإمارة في مرحلة متزامنة مع تأسيس إمارة بني عمّار في طرابلس وكان مؤسّسها القاضي ابن عقيل. وحاول الفاطميّون استرجاع هذه المدينة، فوجّهوا إليها جيوشهم بقيادة بدر الجمالي الذي حاصرها، فطلب ابن عقيل النجدة من الأتراك الذين وجّهوا حملة قوامها أحد عشر ألف جندي حاصروا مدينة صيدا التي كانت تحت نفوذ الفاطميّين.

وأدّى ذلك إلى نوع من التوازن بين الجانبين، الفاطمي والتركي، اللذين رفعا الحصار عن صور وصيدا.

واستطاع ابن عقيل أن يثبّت دعائم حكمه في صور، ساعياً في الوقت نفسه إلى عدم مقاطعة الفاطميّين بشكل تام، إذ حافظ على حدود مقبولة من الاتصالات بهم.

ومما يذكر أن أهمية صور تضاعفت بعد دخول السلاجقة إلى مناطق الشام وسهل البقاع.

لكن الأمر لم يدم طويلاً، فالسياسة التي اتبعها أولاد ابن عقيل تجاه السلاجقة، وخضوعهم لهم، دفعت الفاطميّين إلى مهاجمة صور سنة ٤٨١هـ. فتمكنوا منها، وتابعوا زحفهم باتجاه صيدا، وجبيل فاحتلوهما. وعمد الفاطميون إلى تعيين حاكم فاطمي على صور، التي حاولت الخروج على إرادتهم، والثورة

عليهم. ولم يستقم الأمر إلاّ بعد تدخّل الجيش الفاطمي، وفرض جزية كبيرة على المدينة، وعيّن حاكم جديد، لم يلبث هو الآخر أن ثار عليهم سنة ٤٩٠هـ. فأرسلوا قوات كبيرة تهاجمها، وتعيث فيها فساداً وتخريباً، وتركت للسيف والنهب. ولم يرحل الفاطميّون عنها ألا بعد مجيء الصليبيّين.

السيطرة السلجوقيّة

سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٩م) سقطت مدينة دمشق تحت سيطرة الدولة السلجوقيّة، التي كانت تعمل لإعادة الخلافة العباسيّة إلى السلطة، في مناطق الشرق، والقضاء على الخلافة الفاطمية.

وقد عومل سكان المناطق التي احتلها السلاجقة معاملة سيئة وقاسية.

وأصبح تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، حاكماً على بلاد الشام من قبل أخيه السلطان ملكشاه. وبعد ثماني سنوات، دخل السلاجقة إلى مناطق البقاع وبعلبك، وأرسلوا إلى الأمراء التنوخيين في الغرب كتاباً يدعونهم فيه للاعتراف بسلطتهم، والعمل على حفظ مناطقهم من الهجمات الصليبيّة.

لكن هذا الأمر لم ينته فصولاً، فالفاطميون استعادوا بعد هذه المرحلة سيطرتهم على الساحل، في صيدا وصور، ونفذوا نحو البقاع، حيث تسلموا بعلبك، واندفعوا نحو دمشق. غير أن السلاجقة لم يتراجعوا عنها.

وهكذا توزع النفوذ على المناطق اللبنانيّة، بين دولتي السلاجقة من جهة، والفاطميّين من جهة أخرى. إضافة إلى نفوذ محلي لأمراء التنوخيين في بيروت والجبل، وسيطرة مقدمي الموارنة على جبال لبنان الشمالية، عشية الحملات الصليبيّة التي دخلت لبنان.

الفصل الثاني

أسباب الحملات الصليبيّة

وموجز لمراحلها

أسباب الحملات الصليبيّة

الحروب الصليبيّة هي حملات عسكريّة شنّها الغرب الأوروبي على منطقة الشرق الأوسط، ابتداءً من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ولغاية أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. وهذه الحروب التي امتدّت على مدى قرنين من الزمن، جرت على مراحل متقطّعة، وفي حملات تفصل بين الواحدة والأخرى مدّة من الزمن كانت تطول أو تقصر بحسب الظروف السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة في البلدان التي شاركت في هذه الحملات.

الهدف المعلن كان استرداد الأراضي المقدّسة، وخصوصاً القدس، من أيدي السلاجقة والفاطميّين.

وقد سمّيت هذه الحملات بالصليبيّة لأن الجنود الذين شاركوا فيها كانوا يحملون، وهم متوجّهون نحو الشرق، علامة الصليب على صدورهم. وكانت تجري بإرادة بابا روما الذي وجّه سنة ١٠٩٥ (وكان يومها البابا أوربانوس الثاني) نداء في هذا الشأن إلى ملوك أوروبا وشعوبها.

لكن، لا يمكن الركون إلى الهدف المعلن للحملات الصليبيّة، فهناك أسباب عديدة دفعت إلى القيام بها، وقد جاءت نتيجة مصالح مشتركة جمعت بين الملوك والأمراء الذين قادوها، بالإضافة إلى الفرصة التي رآها البابا مؤاتية لإعادة توحيد الكنيستين، الغربيّة في روما والشرقيّة في القسطنطينيّة.

أسباب الحملات الصليبية يمكن اختصارها على الشكل التالي:

ــ الأسباب الدينيّة:

عند بداية القرن الحادي عشر الميلادي، كانت الدولة العباسيّة قد بلغت من

الضعف، ما جعل ولاة المناطق التابعين لسلطة الخلافة في بغداد يستقلّون عنها، ويُنشيء كلّ منهم دويلته الخاصة.

وهكذا كانت مناطق لبنان وسوريا وفلسطين منقسمة بين السلاجقة شمالاً، والفاطميّين جنوباً. وكانت مدينة القدس في أيدي الفاطميّين الذين كان بعض خلفائهم يضيّقون على زوّار المدينة المقدّسة من غير المسلمين، وخصوصاً الحاكم بأمر الله الذي أمر بإحراق كنيسة القيامة سنة ١٠٠٩، وعانى المسيحيّون في عهده الاضطهاد.

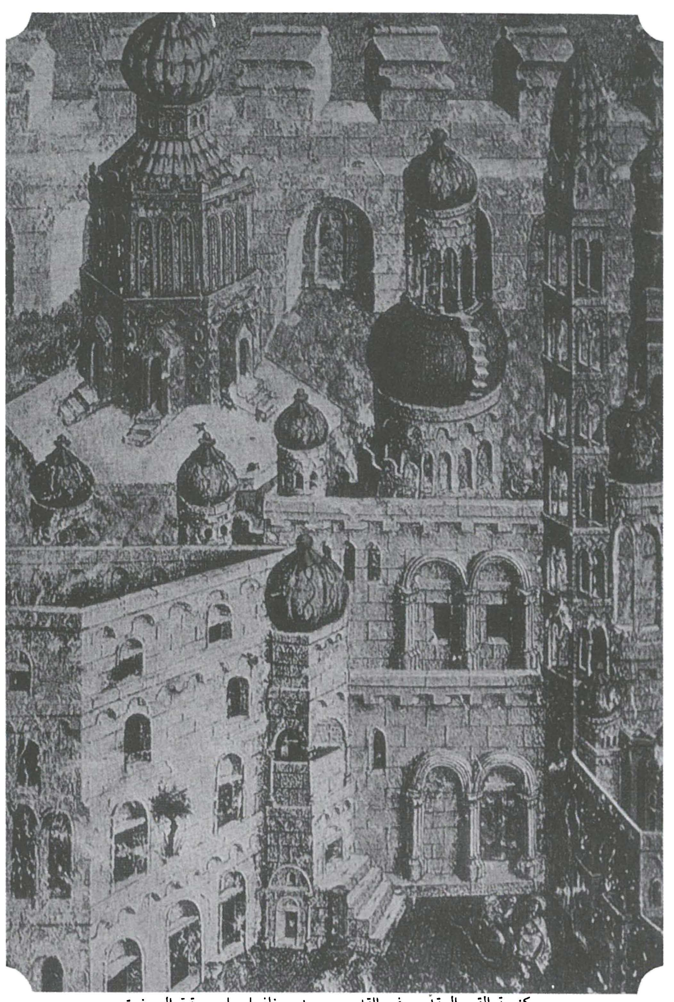
ومن الناحية الثانية، كان السلاجقة يسيئون معاملة الحجّاج الذين يقصدون القدس ويمارسون بحقّهم أنواعاً مختلفة من المضايقات. وازداد الوضع تفاقماً بعدما انتصر السلاجقة على البيزنطيّين في معركة منزكرت سنة ١٠٧١ وأسروا أمبراطورهم، وأصبحت القسطنطينيّة تحت وطأة تهديدهم المباشر.

إزاء هذا الوضع، بدأت تتكوّن في أنحاء عديدة من أوروبا أفكار متقاربة تلاقت لتشكّل تيّاراً شبه موحّد يدعو إلى شنّ حرب على الشرق لاستعادة الأراضي المقدّسة من الذين أحكموا سيطرتهم عليها، ولتأمين طريق آمنة إلى القدس للحجّاج المسيحيّن. وقد دعمت هذه الدعوة استعادة الإسبان بلادهم من أيدي العرب في تلك المرحلة بالذات. ونشطت في الوقت نفسه فكرة الاستشهاد في سبيل استعادة القبر المقدّس.

ـ الأسباب السياسيّة:

في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، كان الإقطاع قد ثبّت أقدامه في معظم أنحاء أوروبا الغربية التي شهدت تطوّراً اقتصاديّاً ودينيّاً وازدياداً ملحوظاً في عدد السكّان انعكس أزمة بطالة.

أما الشرق الأوروبي، وخصوصاً بيزنطية، فكانت تشهد مرحلة بارزة من التطوّر الثقافي والاقتصادي. لكن الخلافات السياسيّة الداخليّة والمؤامرات ساهمت في إضعاف الدولة بنتيجة الصراع الذي قام بين الطبقة الأرستقراطيّة والجيش. وبدأ



كنيسة القبر المقدّس في القدس. ويبدو خلفها جامع وقبة الصخرة

الوضع يسير نحو تدهور تدريجيّ، فكان ذلك فرصة للغرب الأوروبي لتوحيد الكلمة بين طبقات شعوبه المختلفة ولتوسيع مناطق النفوذ وإنشاء دويلات جديدة تخفّف من العبء السكاني.

أمّا الشرق العربي فكان يشهد مرحلة تفكّك واسعة أصابت أوصال الدولة العباسيّة التي تحوّلت إلى مناطق نفوذ تتصارع في ما بينها. وهذا الأمر ساعد قوى غريبة على التحرّك والحصول على نصيب ما من الدولة الواهنة، فاحتلّ السلاجقة بغداد سنة ١٠٥٥، وسيطروا على أقسام من آسيا الصغرى ولبنان وسوريا وفلسطين. لكن دولتهم لم تلبث أن أصيبت بعدوى الانقسام، فتحوّلت إلى إمارات متنازعة.

ـ الأسباب الاقتصادية والاجتماعية:

إن النشاط الاقتصادي الذي شهدته أوروبا الغربيّة خلال تلك المرحلة، وخصوصاً على الصعيد التجاري، جعل أنظار بعض الدول تتطلّع نحو فتح أسواق تجاريّة جديدة في الشرق. وهذا التطلّع دفع هذه الدول إلى الاشتراك في حملات عسكريّة للسيطرة على أراضٍ جديدة تكون بمثابة أسواق جديدة للتجارة وباب رزق يفتح أمام العاطلين عن العمل الذين أفرزتهم الزيادة السكانيّة المرتفعة التي عرفتها أوروبا آنذاك.

مجمع كليرمون Clermont

في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥، انعقد مجمع كنسيّ في مدينة كليرمون في جنوب فرنسا، بدعوة من قداسة البابا أوربانوس الثاني الذي طرح خلال الاجتماعات مسألة مساعدة المسيحيّين في الشرق أمام أكثر من مئتين من الأساقفة وضعفهم من رؤساء الأديرة.

وفي ختام المجمع، ألقى البابا يوم ٢٦ تشرين الثاني عظة أمام الجماهير التي احتشدت في السهل المجاور لمكان انعقاد المجمع، دعا فيها إلى حمل السلاح وإرسال مجموعات من المقاتلين إلى الشرق لاستعادة القدس والقبر المقدّس، ووعد كلّ من يموت شهيداً في الحرب بالثواب الأبدي وبالحياة الأبديّة.

موجز الحملات الصليبيّة

شهد الشرق توافد ثماني حملات بقيادة ملوك الدول الأوروبيّة. وقد مُهّد لهذه الحملات التي تفاوت نصيب كلّ منها من النجاح بحملة «شعبية» أعقبت مباشرة نداء قداسة البابا أوربانوس الثاني وتألّفت من النبلاء وعامة الشعب.

وتوجّهت الجيوش، التي تجمّعت من دون أيّ إعداد أو تخطيط، نحو الشرق قاطعة منطقة البلقان وصولاً حتى القسطنطينيّة التي حلّوا فيها في أواسط صيف ١٠٩٦. وهناك اصطدموا بالسلاجقة في مدينة نيقيا، عاصمتهم. وكانت الهزيمة من نصيب المهاجمين. أمّا الحملات التي تتابعت بعد ذلك، فكانت بقيادة الملوك وتضمّ جيوشاً نظاميّة.

الحملة الأولى

دامت ستّ سنوات (١٠٩٥ ـ ١١٠١)، وتشكّلت من أربعة جيوش نظاميّة من فرنسا وبريطانيا ومن جنوب إيطاليا وصقلّية. وكانت وجهة الجيوش الأولى منطقة الأناضول حيث هزمت السلاجقة وتمكّنت من الوصول إلى مدينة أنطاكية. وتوجّه قسم من جيوش الحملة نحو الفرات وتأسّست هناك كونتيّة الرها، التي تمّ انتزاعها من السلاجقة، وكانت منطقة أرمنيّة غنيّة. وحكم عليها بودوان دو بويّون، شقيق قائد أحد الجيوش الفرنسيّة غودفروا. ثم سقطت مدينة أنطاكية وجعلت إمارة. وبسقوطها، أصبحت الطريق إلى القدس مشرّعة أمام الغزاة، فواصلوا مسيرتهم جنوباً مارّين بالمدن اللبنانيّة حتى وصلوا إلى المدينة المقدّسة في أوائل حزيران ١٠٩٨. لكنّهم انتظروا أكثر من عام ليدخلوها بعدما كان الفاطميّون احتلّوها في آب ١٠٩٨.

وهكذا، تكون الحملة الأولى قد حقّقت الأهداف التي انطلقت من أجلها، وأهمها السيطرة على مدينة القدس.

وانتُخب غودفروا دو بويّون ملكاً على القدس، إلاّ أنه رفض أن يتوّج بالذهب حيث تُوّج السيّد المسيح بإكليل الشوك. وسمّى نفسه حامياً للقبر المقدّس. لكن المنيّة وافته بعد نحو عام فتُوّج أخوه بودوان ملكاً على المدينة.

الحملة الثانية (١١٤٥ ـ ١١٤٨)

بعد أقلّ من نصف قرن على دخول الصليبيّين مدينة القدس، تحرّك السلاجقة من جديد، بزعامة حاكم الموصل عماد الدين زنكي، واستولوا على حلب وأسقطوا إمارة الرها في أيديهم، ثمَّ توجّهوا نحو أنطاكية لإسقاطها.

عندئذٍ، وجّه البابا أوجين الثالث دعوة إلى حملة جديدة لمواجهة السلاجقة. وسرعان ما تشكّل جيشان: الأول ألماني بقيادة امبراطور ألمانيا كونراد الثالث، والثاني فرنسي بقيادة ملك فرنسا لويس السابع. وانطلقا في العام ١١٤٧، واصطدما مع السلاجقة في أكثر من مكان، وتلقّيا الهزيمة مرّات على أيديهم. ورغم ذلك وصلت الحملة إلى القدس بعد نحو سنة، لكنها تحوّلت عن الهدف المرسوم لها، وهو استعادة الرّها، حيث أقنع الملك بودوان الثالث قائدي الحملة بضرورة احتلال دمشق. غير أن دمشق صمدت ولم تسقط. وتوقّف مسار الحملة الثانية عند هذا الحدّ.

الحملة الثالثة (١١٨٨ ـ ١١٩٢)

في العام ١١٧١، تمكّن صلاح الدين الأيّوبي من السيطرة على السلطة في مصر، ووجّه أنظاره شرقاً، معلناً الجهاد المقدّس ضدّ الصليبيّين. لكنه هُزم على يدهم سنة ١١٧٧. فركن إلى مهادنتهم مدّة عشر سنوات، عاد بعدها إلى مواجهتهم، فاحتلّ القدس سنة ١١٨٧.

في هذا الوقت، وجّه البابا غريغوريوس الثامن، وبعده البابا كليمنضوس

الثالث الدعوة إلى حملة صليبيّة ثالثة. وقد تشكّلت من ثلاثة جيوش بقيادة امبراطور ألمانيا فريدريك الأوّل بربروسّا، وملك فرنسا فيليب أوغوست وملك بريطانيا ريكاردوس قلب الأسد.

لم يذهب الألمان بعيداً؛ فبعد احتلال قونيا في آسيا الصغرى، غرق أمبراطورهم في نهر اللامس في كيليكيا، فعاد الجيش الألماني إلى بلاده.

أما الجيش الفرنسي فوصل إلى عكّا في نيسان ١١٩١، وأدركها البريطانيّون بعد أقلّ من شهرين. وفيما عاد الفرنسيّون إلى بلادهم، واصل قلب الأسد محاربة صلاح الدين الأيوبي إلى أن اضطرّه الوضع الداخلي في بلاده إلى العودة إليها، بعدما أبرم اتفاقاً مع الأيوبيّ يسمح للمسيحيّين بزيارة القدس.

الحملة الرابعة (١١٩٩ ـ ١٢٠٤)

في العام ١١٩٣، توفّي صلاح الدين الأيّوبي وانقسمت دولته إلى دويلات. فدعا البابا إينوشنتيوس الثالث إلى شنّ حملة صليبيّة جديدة نحو القدس. لكن هذه الحملة التي قادها عدد من النبلاء تحوّلت إلى عمليات سطو ونهب استهدفت مدينة القسطنطينيّة التي سيطروا عليها سنة ١٢٠٤ وأسّسوا فيها امبراطوريّة لاتينيّة، وانتهت الحملة الرابعة عند هذا الحدّ.

الحملة الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١)

دعا إليها البابا إينوشنتيوس الثالث سنة ١٢١٦، لكنه توفّي قبل أن تنطلق. فتبنّاها بعده خلفه هونوريوس الثالث. وكانت هذه الحملة بقيادة ملك المجر أندريه الثاني والدوق النمساوي ليوبولد السادس. وانضمّت إليها فصائل قبرصيّة وأخرى من المناطق التي كانت ما تزال تحت سيطرة الصليبيّين في سوريا ولبنان وفلسطين.

وصلت الحملة إلى عكّا سنة ١٢١٧ ودخلت في مناوشات عقيمة مع الأيّوبيين. وعاد المجريّون إلى بلادهم، فيما توجّه الآخرون نحو مصر فاحتلّوا

مدينة دمياط سنة ١٢١٩، لكنهم فشلوا في دخول القاهرة.

الحملة السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩)

بناء على نداء وجّهه البابا هونورويوس الثالث إليه، جهّز امبراطور ألمانيا فريديريك الثاني حملة عسكريّة شاركت فيها جيوش إيطاليّة وبريطانيّة. وأسفرت هذه الحملة عن اتفاقيّة عقدها الأمبراطور مع السلطان الأيّوبي الكامل سنة ١٢٢٩، تنصّ على استعاد الصليبيّين مدن القدس والناصرة وبيت لحم لمدّة عشر سنوات وعشر أشهر وعشرة أيّام، على أن تتوقف خلال هذه الفترة الحملات الصليبيّة على المنطقة.

وقد أثار هذا الاتفاق حفيظة البابا والجيوش الأخرى في الحملة، فترك فريديريك الثاني القدس عائداً إلى بلاده.

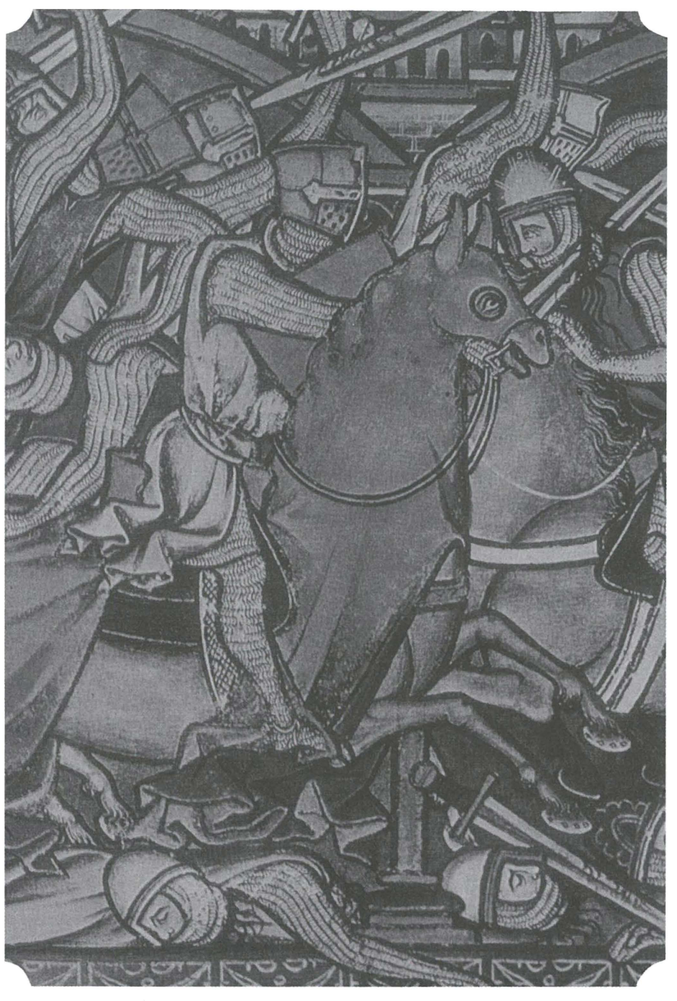
الحملة السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤)

قام بها ملك فرنسا القدّيس لويس التاسع، وكانت وجهتها الأولى مصر، فدخلت دمياط وعجزت عن دخول القاهرة بعد معركة أسر فيها الملك الفرنسي. وأعقب ذلك مفاوضات انتهت إلى الإفراج عن لويس التاسع مقابل فدية ماليّة والانسحاب من دمياط. وبقي الملك الفرنسي أربع سنوات بين سوريا وفلسطين ليعود إلى بلاده في العام ١٢٥٤.

الحملة الثامنة والأخيرة (١٢٧٠)

استولى المماليك على مصر سنة ١٢٥٩، وقرّر السلطان بيبرس اقتلاع ما تبقّى من الصليبيّين في الشرق. فتشكّلت حملة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع لمساعدة ملك بريطانيا هنري الثالث. والحملة الفرنسيّة المعدّة لمواجهة المماليك لن تكون مهيّأة لنزال عدوّ طارىء آخر هو الطاعون الذي ضرب جنودها وقضى على مليكها.

وبعد ذلك، واصل المماليك مهاجمة مواقع الصليبيّين في الشرق التي راحت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، حتى سقوط المدينة الأخيرة عكّا سنة ١٢٩١. ومع سقوطها زال آخر معقل للصليبيّين في الشرق وانتهى صراع القرنين.



مشهد من معارك الصليبيين

الفصل الثالث

لبنان في عهد الصليبيّين

الصليبيّون في لبنان

إن الطريق التي سلكها الصليبيّون إلى القدس كانت تمرّ في خطّين يعبران لبنان من شماله إلى جنوبه، الأوّل يسلك وادي نهر العاصي، والثاني يعبر السّاحل.

الخطّ الأوّل سلكه الفرنسيّون بقيادة الكونت ريمون دو سان جيل ووصلوا عبره إلى حصن الأكراد وسيطروا عليه باعتباره موقعاً استراتيجيّاً مهمّاً. ثمّ تقدّموا باتجاه مدينة عرقة وضربوا حولها حصاراً قويّاً استمرّ نحو ثلاثة أشهر وانتهى في أيّار ١٠٩٩. وكانت تلك أوّل مدينة لبنانيّة تدخل في مواجهة مع الصليبيّين الذين فكّوا الحصار وتابعوا سيرهم.

أما الجيوش التي سلكت الطريق الساحليّة فقد كانت بقيادة غودوفروا دو بويون الفرنسي وروبير الفلمنكي. وقد تحاشى سكان المدن الساحليّة اللبنانيّة الدخول في مواجهة عسكريّة مع الصليبيّين، فبعث حكّام كلّ من طرابلس وبيروت وصيدا وصور إلى قوّادهم هدايا مختلفة، من أغذية وماء للشرب ومال. فاللبنانيّون لم يكونوا راغبين في تعريض مدنهم وسكانها ومواسمهم الزراعيّة الغنيّة بشتّى أنواع الثمار لخطر الجيوش الزاحفة.

وهكذا، عبر الصليبيّون مدن الساحل من دون أيّ مواجهة تذكر، ما عدا اشتباكات عابرة مع السلاجقة في المنطقة، وخصوصاً في طرطوس وجبلة اللتين كانتا تابعتين لإمارة طرابلس التي كان على رأسها فخر الملك ابن عمّار الذي افتدى عرقة التابعة لإمارته بالمال والهدايا. أما مدينتا البترون وجبيل ـ وكانتا تابعتين أيضاً لطرابلس ـ فقد نجتا من الخراب لأن الصليبيّين لم يتعرّضوا لهما.

ولدى وصولهم إلى بيروت، تلقّوا هديّة ماليّة وكميّة من المؤن الغذائيّة من حاكم المدينة الفاطمي. ومكث الصليبيّون في بيروت ليلة واحدة لم تشهد أيّة

عمليّات عسكريّة. وفي اليوم التالي، تابعوا تحرّكهم باتّجاه القدس.

في صيدا، أعجبتهم الإقامة في ظلّ البساتين الغنيّة والمناخ اللطيف. ومنها انتقلوا إلى جوار مدينة صور التي كانت من أكثر المدن اللبنانيّة ازدهاراً، إلى جانب طرابلس. فتجارتها كانت ناشطة كالعادة وأسوارها عالية وحصينة. وفي جوار صور، بات الصليبيّون ليلة أخرى في لبنان، قبل أن يتابعوا طريقهم.

تقسيم المنطقة

بعدما سيطر الصليبيّون على هدفهم الأساسي، مدينة القدس، عمدوا إلى تقسيم البلاد التي احتواها إلى أربع مناطق:

- في الشمال: إمارة أنطاكية، وتضمّ كيليكيا الأرمنيّة.

- في الشرق: كونتيّة الرّها، وتشمل ضفّتي نهر الفرات.

- في الوسط: كونتيّة طرابلس، وهي تمتدّ من حصن المرقب شمالاً إلى نهر الكلب جنوباً.

- في الجنوب: مملكة القدس، وهي تشمل المنطقة الممتدّة من نهر الكلب شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء وصولاً حتى ميناء العقبة على البحر الأحمر جنوباً.

ولم تشمل سيطرة الصليبيّين سوى المناطق الساحليّة، وتلك القريبة منها في الداخل. فمدينة بعلبك، مثلاً، لم تدخل أبداً ضمن نطاق نفوذهم.

أما منطقة جبيل فخضعت لنفوذ إيطالي جنويّ، وأصبحت بارونيّة تتمتّع بقدر لا بأس به من الاستقلال الذاتي الذي حافظت عليه طوال عهد الصليبيّين في المنطقة.

إجراءات استراتيجيّة

بعدما قسّم الصليبيّون المناطق التي احتلوها، كانت هناك حاجة ماسّة إلى إبعاد خطر الفاطميّين عن الشواطىء وتأمين طرق المواصلات بين أوروبا ومملكة

القدس بشكل خاص. فكان لا بدّ من احتلال الموانىء المنتشرة على طول الساحل السوري واللبناني والفلسطيني.

وبدأ الصليبيّون بتنفيذ هذا الأمر بمساعدة عسكريّة ولوجستيّة من قبل الجمهوريّات الإيطاليّة، واستطاعوا دحر الفاطميّين الذين بدا أسطولهم ضعيفاً في مواجهة الأساطيل الصليبيّة التي كانت متفوّقة بالعدد وبالسلاح وبالرجال.

ففي العام ١١١٠، حاصر الصليبيّون مدينة بيروت طيلة أحد عشر يوماً، ثم هاجموها وسيطروا عليها. ونهبوا ممتلكات أهلها بعدما قتلوا الوالي والعديد من السكّان وأسروا قسماً آخر، فيما هرب من استطاع باتجاه جزيرة قبرص. وسيطرت مملكة القدس قبل ذلك على الموانىء التابعة لها في عكّا وأرسوف وقيساريّة.

وفي أواخر السنة نفسها، استولى الصليبيّون على صيدا ومرافئها، بعد حصار دام نحو شهر ونصف الشهر. وقد دخلوها من دون قتال بعدما وافق حكّامها على دفع فدية ماليّة كبيرة.

أمّا صور، فقد حافظ الفاطميّون عليها طويلاً، رغم محاولات يائسة قام بها الصليبيّون لاحتلالها. ويعود ذلك إلى مناعة أسوارها. لكن المدينة سقطت سنة ١١٢٤ بعد محاولات طيلة اثنتي عشر عاماً.

التوسّع في الداخل

كان سهل البقاع لا يزال خارج نطاق السيطرة الصليبيّة. وبسبب أهميّته على الصعيد الغذائي، شنّ الصليبيّون حملة عسكريّة لاحتلاله فبلغوا مدينة بعلبك التي كانت تابعة حينئذٍ لحاكم دمشق السلجوقي طغتكين. وبعد مفاوضات بين الجانبين، تمّ التوصّل إلى اتفاق لوقف القتال مقابل حصول الصليبيّين على ثلث الغلال التي ينتجها سهل البقاع.

تثبيت المواقع

بعد سيطرة على المنطقة لم تكن تامّة، سعى الصليبيّون إلى تثبيت مواقعهم

ومناطق نفوذهم ليأمنوا خطر أيّ هجمات قد يشنّها أعداؤهم الكثر في المناطق المحيطة بهم، وخصوصاً الفاطميّين والسلاجقة الذين كانوا يسيطرون على المدن الداخليّة المطلّة على الساحل.

لهذا، بدأ الصليبيّون بإقامة تحصينات على الساحل لكي يحموا الشواطىء من الهجمات البحريّة المفاجئة. وكانت هذه التحصينات عبارة عن أبراج مراقبة أقيمت في مختلف المدن البحريّة، ولا يزال بعضها قائماً حتى اليوم، كبرج جبيل.

وإلى جانب الأبراج، بنى الصليبيّون قلاعاً عديدة على طول الشاطىء، كما في طرابلس وجبيل وصيدا. وتجدر الإشارة إلى أن معظم القلاع التي أقاموها كانت قلاعاً أو حصوناً قديمة مهدّمة جزئيّاً، وتعود إلى عهود مختلفة، واقتصر دور الصليبيّين على ترميمها.

وبنى الصليبيّون قلاعاً داخليّة مطلّة على الساحل، أبرزها قلعة الشقيف أرنون التي تشرف على نهر الليطاني، والتي بناها سنة ١١٣٥ ملك القدس آنذاك فولك. وهذه القلعة جاءت تجديداً لحصن روماني كان مقاماً في المكان نفسه.

وهناك أيضاً قلاع أخرى كالشقيف تيرون، وتبنين والمنيطرة. وقد بناها الصليبيّون في أماكن مرتفعة لكي تشرف على طرق المواصلات.

الفصل الرابع

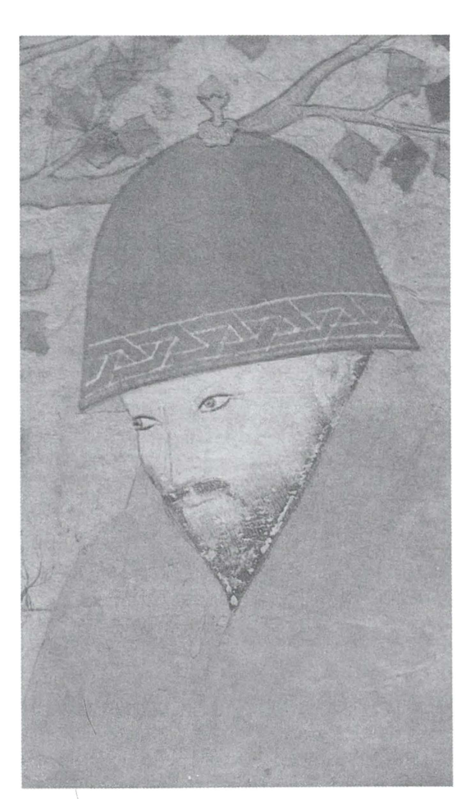
صلاح الدين يواجه الصليبيّين

الأيوبيون

أصلهم

هم عائلة كردية، تنتسب إلى الأشراف، وقد دخلت في خدمة آل زنكي. ثم استوطنت بعلبك، وحكمتها بعد أن احتلها عماد الدين زنكي.

وفي هذه المدينة نشأ صلاح الدين، ابن شقيق أسد الدين شيركوه الذي كان من كبار قادة نور الدين. وفي سنة ١١٦٨م أرسل نور الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر لتقديم المساعدة للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦٠م - ١١٧١م)



صلاح الدين الأيوبي

بعد الثورة التي قامت ضده. وبعد القضاء على الثورة، تسلم شيركوه شؤون الوزارة في مصر وما لبث أن توفي، فآلت إلى ابن أخيه صلاح الدين الذي لقب نفسه «بالملك الناصر». وفي سنة ١١٧١م خلع صلاح الدين الخليفة العاضد، ورفع شعار الخلافة العباسيّة.

وبذلك عادت الوحدة إلى الخلافة، وعادت الوحدة المذهبية إليها بحسب المذهب السني.

وحاول نور الدين محمود، متسلم دمشق، ربط مصر ببلاد الشام عبر طريق بريّة، وإبعاد صلاح الدين، لكنه توفي سنة ١١٧٤م وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل.

فأتى صلاح الدين إلى دمشق وخلعه، وأصبح حاكماً على جميع المناطق الإسلامية التي كانت خارج النفوذ الصليبي. ثم سيطر على حلب سنة ١١٨٣ ولقّب نفسه بالسلطان، واستمرت السلطنة من بعده لبني أيوب حتى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد.

صلاح الدين ولبنان

بعد الهجمات الصليبيّة في الشمال والوسط، عمد الغزاة إلى إقامة الحصون في مناطق الحولة، وقلعة هونين في شمالي فلسطين، وحاولوا السيطرة على البقاع والدخول إلى بعلبك. لكن ابن المقدم، متسلم بعلبك، استطاع صدّهم واستقل بالمدينة.

أمام هذا الأمر، جهّز صلاح الدين نفسه، فأخذ بعلبك من ابن المقدم، وسلّمها لأخيه طوران شاه. وسارع للهجوم على حصن الصليبيّين عند جسر بنات يعقوب، قرب بانياس فحاصره.

وكان هذا الموقع يعمل على قطع طرق الإمدادات عن الجيوش الإسلامية. وبعد أخذ ورد استطاع السيطرة على الموقع ووصل إلى تل القاضي الواقعة اليوم

على الحدود اللبنانيّة ـ الفلسطينيّة، وراح يعمل على منع الصليبيّين من التقدم باتجاه الشمال حيث إمارة أنطاكية. وجرّ الصليبيّين إلى معركة وقعت في سهل مرجعيون، وكاد يأسر قائدهم.

وتابع صلاح الدين أعماله العسكرية ضد الصليبيّين، وقد بلغت ذروتها في موقعة حطين.

معركة حطين

يوم السبت في ٤ تموز ١١٨٧م (٥٨٣هـ) حصلت معركة حطين. وكان الصليبيون قد اجتمعوا في «مرج صفورية» بالقرب من عكا. أما صلاح الدين فإنه عسكر في قرية تسمى الصنبرة، مقابل عقبة أخيق، وعلى بعد ثلاثة أميال من طبريّة.

ولما بلغ الصليبيّين ذلك، قصدوا المكان للدفاع عنه، فالتقى الجيشان عند طرف طبريّة الغربي، والتحما في قتال مرير كانت نتيجته لمصلحة السلطان وجيشه. فانكسر الصليبيّون وانسحبوا باتجاه صور. والقسم المتبقي اعتصم في تل حطين حيث حوصر من قبل جيوش المسلمين.

وتابع صلاح الدين حملته فاستولى على قلعة طبريّة، وعكا. ثم اتجه نحو الساحل اللبناني حيث ضرب تبنين بالمنجنيق، وضيَّق عليها الخناق. لكنه استطاع الدخول إليها عنوة. وتقدم نحو صيدا، فتسلمها. وتطلع ناحية بيروت، التي زحف عليها بالقتال، فأخذها في اليوم نفسه الذي سقطت فيه مدينة جبيل، التي كانت تهاجم من قبل جيوشه الوافدة من بلاد الشام.

يُذكر أن صور عاندت هذه الحملة، رغم سقوط معظم الساحل اللبناني الجنوبي، وبعض مدن الساحل الفلسطيني مثل عسقلان؛ فاتّحد في وجهها، أي صور، كل من بقي من جيوش الصليبيّين في مناطق الساحل.

في هذه الأثناء هاجم صلاح الدين مدينة القدس ومنطقتها، وكانت هزيمة

الصليبيّين وسقوط مملكة أورشليم عام ١١٨٧م سبباً لإرسال حملة صليبيّة ثالثة إلى الشرق عام ١١٩٠م بقيادة ملك انكلترا «ريكاردوس قلب الأسد».

محاولات جديدة

إن هذه الانتصارات كلّها، لم ترح صلاح الدين، الذي بقي عازماً على احتلال صور. فتوجه إليها من جديد يريد إخضاعها. وأرسل في طلب ابنه الملك الظاهر الذي أسرع بالقدوم إليه. وبعد اكتمال الاستعدادات الحربية من حولها بدأ بالهجوم، يسانده الأسطول المصري من ناحية البحر.

لكن الصليبيّين خرجوا خلال الليل بسفن أسطولهم، وضربوا السفن السلطانية واستطاعوا أسر خمس قطع منها، بعد قتل عدد كبير من البحارة. وتزامن ذلك مع قدوم فصل الشتاء، فتراجع صلاح الدين إلى عكا، ومنها إلى دمشق.

الهجوم على شقيف أرنون

جدد صلاح الدين عزمه على احتلال قلعة شقيف أرنون، وكانت قلعة حصينة قريبة من بانياس ونواحي فلسطين. فأتى إلى مرجعيون وعسكر فيها، وأخذ يعمل على تجميع جيوشه.

في المقابل، رأى صاحب قلعة الشقيف أن الطريقة الأفضل لمواجهة الأمر، تقضي بالنزول إلى حيث السلطان؛ فتوجه بنفسه إلى خيمته، فأذن له. وهنا يورد القاضي بهاء الدين بن شداد في كتاب النوادر السلطانية ما يلي: «فدخل، فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنجية وعقلائها، وكان يعرف العربية...

«فحضر بين يدي السلطان، وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر له أنه مملوك، وأنه تحت طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الإفرنج، وإقطاعاً بدمشق، يقوم به وبأهله... فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت... وكان حسن المحاورة ومتأدباً في كلامه».

وقد اتّضح أن صاحب الشقيف طلب مهلة لتسليم القلعة. لكنه تعمد الخداع ولم يبادر إلى الإيفاء بعهده، ممّا حمل السلطان على إعادة الكرة لمرة ثانية.

وبقيت الأمور العسكرية بين كرٍّ وفر، لا تستقيم بشكل تام لأحد الفريقين؛ فرغم إحراز جيوش السلطان شيئاً من التقدم في مناطق فلسطين، والساحل اللبناني الجنوبي، بقيت المناوشات قائمة، وراح الصليبيون مرة أخرى، يغيرون على تبنين، مما اضطره إلى توجيه إمدادات جديدة استطاعت إبعادهم إلى نواحي صور.

انقضاء المهلة

كُنّا قد ذكرنا أن صاحب الشقيف طلب مهلة لتسليم القلعة، لكنه أخذ يتمهل في عملية التسليم، فعاد صلاح الدين وعسكر قريباً منها.

ولما رأى الأمير الفرنجي ذلك، نزل إلى السلطان، ووضع نفسه بخدمته مرةً جديدةً، وعرض عليه المكان، وقال: «المدة لم يبق منها إلا اليسير، وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً، ومن المصلحة أن يبعث السلطان من يتسلم المكان، وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور وأن عليهم الخروج منها في هذه الأيام».

وحاول الأمير المذكور تجديد مهلة التسليم، فارتاب السلطان بنواياه ونصب له خيمة قريبة من خيمته أقام فيها حتى انقضاء المهلة، حيث بيّن له بأنه عمد إلى الخداع والغدر، بإقامة تحصينات. ونقله على أثر ذلك إلى دمشق وبقيت القلعة تقاوم من هم حولها، فيما تراجع السلطان مجدداً إلى ناحية عكا مع بعض جنوده.

وفي نهاية الأمر، وبعد ملاحظة من هم في الداخل منظر الحصار المضروب من حولهم، قرروا التسليم طالبين الأمان؛ خاصة بعد أن علموا بأن أمير القلعة الآنف الذكر، قد عذّب في دمشق. وتمّ لهم ما أرادوا، فخرجوا تاركين وراءَهم الأموال والسلاح. فتسلم السلطان شقيف أرنون، في شهر ربيع الأول سنة (٥٨٦هـ)، وعاد صاحب صيدا والفرنج الذين كانوا داخل القلعة إلى صور.

صلاح الدين والملك الألماني

عندما تحقق صلاح الدين من وصول ملك الألمان فريديريك بربروسا إلى

مقربة من البلاد الإسلاميّة، جمع أمراء دولته وتشاور معهم في كيفية مواجهة الأمر الجديد. فقرَّ الرأي على توزيع الجيوش إلى قسمين، يتولى صلاح الدين أحدهما ويقوم بمنازلة الحملة الآتية.

وقام بهدم أسوار صيدا وجبيل، ونقل سكان المدينتين باتجاه بيروت التي عمل على تحصينها، وكان ذلك في السنة (٥٨٦هـ).

لكن الحملة الألمانية مُنيت بالفشل بعد غرق بربروسا وعودة قسم كبير من أفرادها ووقوع آخرين في الأسر، ومن سلم منهم واصل سيره إلى فلسطين، واشترك هناك مع غيادي لوزينيان في محاصرة عكا.

وصول قلب الأسد

استطاعت الحملة الإنكليزية بقيادة ريكاردوس قلب الأسد، انتزاع قبرص من البيزنطيين سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) وتوجهت إلى صور بإمدادات حربية كبيرة. لكن صاحب صور رفض السماح لها بدخول ميناء المدينة، مما دفعها إلى النزول في عكا.

ويذكر القاضي ابن شداد، في هذا السياق، أن السلطان أمر بتوجيه نجدة بحرية من بيروت إلى عكا، لمساعدة المدينة المحاصرة. لكن النجدة وقعت في يد ريكاردوس. ومما يورده صاحب الواقعة في هذا الإطار: «. . . ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصلت بطسة من بيروت، عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال الأبطال المقاتلة.

وكان السلطان قد أمر بتعبئتها في بيروت، وتسييرها، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل إلى البلد (المقصود عكا) مراغمة للعدو، وكان عدد رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضها الإنكتار (الإنكليز) الملعون في عدة شوان، قيل كان في أربعين قلعاً، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها، واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء بأن وقف الهواء، فقاتلوها قتالاً عظيماً. . . وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً، مجرباً في الحرب، فلما رأى إمارات الغلبة عليهم، ورأى أنهم

لا بد وأن يقتلوا، قال: «والله لا نُقتل إلا عن عز، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً». . . فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً، فامتلأت ماءً، وغرق جميع من فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو منها بشيء».

وفي تموز من تلك السنة ١١٩١م سقطت عكا بيد الصليبيّين، واعتبر ملك فرنسا فيليب أوغست أن مهمته قد تمت فرجع إلى بلاده، بعد أن ترك بعضاً من قواته تحت إمرة «قلب الأسد».

وتوسع ريكاردوس جنوباً، واحتل حيفا وقيسارية، واستطاع هزيمة صلاح الدين في منطقة أرصوف في أيلول ١١٩١م. وحاصر القدس، التي وضع فيها صلاح الدين كامل ثقله. وأمام توازن القوى هذا، وبسبب الخلافات المستمرة بين زعماء الصليبيّين، ابتدأت بين الفريقين الإسلامي والصليبي، مفاوضات لحل الأزمة. وقضى أحد الاقتراحات بتزويج شقيقة ريكاردوس (وكانت زوجة صاحب صقلية المتوفي) بشقيق صلاح الدين، لكن الاقتراح فشل. وبعد ذلك، عقد ريكاردوس مؤتمر للزعماء الصليبيّين في عسقلان خلال شهر نيسان ١١٩٢، وتمّ فيه الاتفاق على أن يكون كونراد دي مونتغرا ملكاً؛ لكنه اغتيل على يدي أحد الباطنية فخلفه هنري دي شامبين الثاني.

وعُيّن غي لوزينيان ملكاً على جزيرة قبرص، وانتهى بذلك الخلاف بين الصليبيّين. ولما كان ريكاردوس يود العودة إلى انكلترا، جرى الاتفاق بينه وبين صلاح الدين على الأمور التالية:

١ ـ عقد الصلح لفترة زمنية مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢ ـ تشكل المنطقة الساحلية الممتدة بين صور ويافا مملكة صليبيّة.

٣ ـ تُضمن حرية الحجاج المسيحيين بالدخول إلى القدس لإقامة الفرائض الدينيّة وتؤمن سلامتهم بدون دفع أي ضرائب أو مكوث.

٤ ـ اقتسام مناطق اللّد والرملة بين الفريقين على أن يبقى المسلمون في عسقلان.

٥ ــ حرية التنقل والإقامة بين مختلف المناطق الصليبيّة والإسلاميّة، فلا يمنع أحد من التوجه إلى هذه أو تلك من المناطق، وبالعكس.

وقد وقعت هذه الاتفاقية في الرملة بتاريخ ٢ أيلول ١١٩٢م.

ومما جاء فيها، ودائماً بحسب كتاب «النوادر السلطانية»: «ولما كان يوم الاثنين حادي عشرين شوال جمع السلطان الأمراء الأكابر وأرباب المشورة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس، واستقر الأمر من جانبه عليها، وهي أخذ صيدا، وأن يكون معنا على الفرنج، ويقاتلهم، ويجاهرهم بالعداوة، وذكر لهم ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة، ويكون لنا الجبليات بأسرها، أو تكون القرايا كلها مناصفة؛ وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء».

وبهذا الصلح انتهت الحملة الصليبيّة الثالثة، وعاد ريكاردوس إلى بلاده في خريف السنة ١١٩٢م.

الأيوبيون بعد صلاح الدين

توفي صلاح الدين في ٤ آذار ١١٩٣، وله من العمر ٥٨ سنة، فتوزعت السلطنة على أولاده وعددهم ١٧، وعلى أخوته. وأدّى ذلك إلى حالة من الضعف والتفكك وإلى انفصال مصر عن سوريا. وتفرقت المناطق الشامية إلى ممالك صغيرة، فاستقل كل واحدٍ من الورثة بمدينة أو محلة، كمملكة دمشق، أو حلب، أو حماه، أو بعلبك.

واستغل الصليبيّون هذه الأوضاع، ووسعوا نفوذهم وعادوا إلى بيروت. ودامت المعاهدة المعقودة سابقاً بين صلاح الدين «وقلب الأسد» حتى العام ١١٩٧، رجعت بعدها الأوضاع إلى الفوضى والتدهور. واستطاع الملك العادل سيف الدين أبو بكر الأيوبي شقيق صلاح الدين إعادة توحيد مصر وسوريا مجدداً سنة ١٢٠٠م.

الفصل الخامس

المماليك

أصلهم ودولتهم

إن أوّل ظهور للمماليك يعود إلى بداية القرن التاسع الميلادي، وهم يتفرّعون من أصول مختلفة؛ فمنهم الأتراك ومنهم المغول، وهناك فئة ثالثة من الشركسيّة. وكانوا قبل تأسيس دولتهم في أواسط القرن الثالث عشر أرقّاء يباعون في أسواق العبيد في البلاد الروسيّة وفي القوقاز.

تأسّست دولتهم الأولى سنة ١٢٥٠م في مصر، وعرفت بدولة المماليك البحريّين واستمرّت حتى سنة ١٣٨٢م، حين قامت دولة المماليك البرجيّين التي دامت حتى العام ١٥١٧م.

تأسيس دولة المماليك

عندما توفّي السلطان الأيوبي الصالح أيّوب سنة ١٢٤٩، تولّت زوجته شجرة الدرّ زمام الحكم في البلاد. وبعد ذلك تزوّجت من مملوك كان يعمل في خدمة السلطان، يُدعى عزّ الدين أَيْبَك الذي استغلّ هذا الزواج لينفرد بالحكم. لكن زوجته لم تتورّع عن قتله بواسطة مكيدة دبّرتها له في الحمّام الملكي. ولم يطل الوقت حتى لقيت هي المصير نفسه، حيث قتلتها جواري زوجة أيبك الأولى ضرباً بالقباقيب.

وقد استغلّ مملوك آخر يُدعى سيف الدين قطز البلبلة التي عرفتها البلاد، فنصّب نفسه كأوّل سلطان على المماليك. ثمّ انتصر على الأيوبيّين الذين رفضوا قيام الدولة الجديدة.

أمّا التأسيس الفعلي لدولة المماليك فتمّ على يد المملوك البحري بيبرس الذي حكم بين العامين ١٢٦٠ و١٢٧٧. وأتى من بعده قلاوون وحكم من العام

١٢٧٩ إلى ١٢٩٠. وكان كلاهما خادم الملك صلاح الدين، فكان قلاوون مؤتمناً على ابن بيبرس الذي تسلم العرش، وهو ابن سبع سنوات. لكن حب السلطة وصغر الملك دفعا قلاوون إلى خلع الملك الصغير وتنصيب نفسه سلطاناً على العرش.

أبرم قلاوون معاهدة هدنة بين المسلمين وصاحب طرطوس مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر. وواحدة أخرى مع صور مماثلة للأولى، باستثناء بند واحدٍ يمنع بناء حصون أو قلاع طيلة مدة المعاهدة. لكن حصاراً ضرب حول قلعة المرقب من قبل المغول دام ثمانية وعشرين يوماً وانتهى باستسلامها.

وفي العام ١٢٨٩ ضرب حصار آخر على طرابلس من قبل المسلمين الذين هاجموها ودمروها؛ وعلى البترون التي سقطت بأيديهم دون أية معارك.

وقام ابن قلاوون بين العامين ١٢٩٠ و١٢٩٣ بمحاصرة عكا المنطقة الوحيدة العسكرية التي بقيت في يد الصليبيّين مدة قرن واحد، فاستسلمت. وبذلك لم يبق للصليبيّين أي من المدن الساحلية التي كانت بيدهم، وفقدوا الأمل في المحافظة على وجودهم في الشرق.

بعد سقوط عكا، غادر حماة صور المدينة وبدأت المدن الساحلية الأخرى تسقط الواحدة تلو الأخرى: صيدا ثم بيروت وأخيراً طرطوس.

لبنان في عهد المماليك

انتشرت دولة المماليك انتشاراً واسعاً، خاصة في بداية القرن الرابع عشر، فاستطاعت طرد الصليبيّين ووقف هجمات التتر وقمع النعرات الطائفية بين الإسلام في لبنان وسوريا. وعندما استقر الوضع تخلص المماليك من كل الصعوبات التي كانت تعترض طريقهم وقاموا بوضع سياسة خاصة طبقت على كافة الأقاليم الخاضعة لهم.

وقسّم المماليك هذه الأقاليم على الشكل التالي: قسمت سوريا إلى ست نيابات أو ممالك، ولبنان إلى ثلاث نيابات، ودمجت مع نيابات سوريا. وقد ضمت نيابة طرابلس شمالي لبنان والمنطقة الساحلية من شمالي اللاذقية إلى نواحي جبيل. وضمّت نيابة صفد لبنان الجنوبي وصور. أما باقي المدن فقد ضمّت إلى نيابة دمشق، وهي صيدا وبيروت وبعلبك. وأما البقاع فقسم إلى قسمين: البقاع الشمالي، والبقاع الجنوبي. على رأس كل نيابة نائب أو حاكم مستقل عن الآخرين، وكان حكمهم شبيهاً بحكم السلطان في القاهرة.

أساء الحكام التصرف في النيابات التي تولوها ممّا انعكس ظلماً على الشعب ووقعت الفتن والمنازعات والاضطرابات، إضافة إلى المجاعة التي كانت تعمّ معظم الشعب المغلوب على أمره، والقحط والزلازل والأمراض القاتلة.

وقلّ عدد السكان في الأقاليم التي كانت خاضعة للماليك إلى الثلث بسبب الكوارث الطبيعية والمشاكل والجوع. أما في المناطق الجبلية فلم تصب بمرض الطاعون بالحجم الذي أصيب به سكان المدن. وبدأت تزول شيئاً فشيئاً الأقاليم التي سيطروا عليها بسبب انخفاض عدد السكان وتخريب المدن وانعدام الحركة فيها.

وبقيت المناطق التي احتلها صلاح الدين بيد المماليك؛ لكن، طغت عليها

المنازعات والفساد وسوء التصرف، ممّا أدّى إلى فرض قيود قاسية بحق السكان غير المسلمين، وأجبر اليهود والنصارى على ارتداء زي يميزهم عن المسلمين.

وقام السلطان قلاوون في العام ١٢٨٣ بتهجير قسم من موارنة لبنان، فأرسل جيشه إلى أعالي لبنان الشمالي، إلى بشري وإهدن وحدث الجبّة، ودمرها ودفع سكانها إلى الهرب إلى جزيرة قبرص بأعداد هائلة قدرت بثمانين ألف نسمة.

وهدفت سياسة المماليك، من جهة ثانية، إلى توحيد جميع الفروع المنبثقة عن الإسلام وضمها تحت ظلّ المذهب السنّي. ولأجل ذلك، قاموا بقتل الجماعات المنتمية إلى المذاهب الإسماعيليّة والنصيريّة والشيعيّة، فهرب عدد كبير منهم، خاصة الشيعة، إلى جبال لبنان والبقاع بعدما كانوا يشكلون الخطر الأكبر على المماليك.

ولم يهتم المماليك كثيراً بالدروز لأنهم لم يكونوا يشكلون خطراً سياسياً عليهم، بعكس الشيعة؛ إضافة إلى أنهم يختلفون عنهم في مواضيع دينيّة؛ فضلاً عن أن عددعم قليل، ويعيشون في منطقة صغيرة ولم تكن لهم مطامع أو أهداف سياسيّة.

في مواجهة كسروان

تعرض لبنان لأعنف الحملات التي قام بها الملك ناصر خلال السنوات ١٣٠٢ و١٣٠٦ ـ ١٣٠٧، خاصة تلك الحملات العسكرية على كسروان التي أدّت إلى تدميرها كلياً.

كانت حدود كسروان تمتد إلى نهر بيروت، وإلى جبل صنين وجبل الكنيسة. وكانت تضم أيضاً منطقتي المتن الشمالي والجنوبي. وكان سكانها من طوائف مختلفة، من موارنة ويعاقبة، ودروز، وشيعة ونصيريّة.

قام المماليك بقتل عشوائي لعدد كبير من أهالي كسروان، بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف ومعظمهم من الدروز، في معركة عين صوفر عام ١٣٠٧. وانعدمت الحياة في هذه المنطقة فتقاسمت ثلاثمئة عائلة تركمانية المنطقة الساحليّة الممتدة من

شمالي بيروت إلى جنوبي طرابلس، كإقطاعات في ما بينها.

الإقطاعيّة

الإقطاع هو هبة كان يقدمها السلطان إلى من يقدم مساعدات عسكريّة للشعب والدولة. ويظلّ الإقطاع ساري المفعول طالما السلطان راضٍ عن صاحبه. ومقابل هذه الهبة، كان صاحب الإقطاع يقدم سنوياً للسلطان مالاً وجنوداً من أبناء المقاطعة.

أما بالنسبة للعمال والفلاحين في كل من سوريا ومصر، فكانوا مقيّدين بشروط قاسية، بعكس العمال والفلاحين اللبنانيين الذين كانوا أكثر تحرراً، ويعملون في المكان الملائم لهم وينتقلون من إقطاعي إلى آخر. فلم يتمتع أي من العمال والفلاحين بالحريّة التي كان يتمتع بها العمال والفلاحون اللبنانيون. والسبب يعود إلى أن الإقطاع في لبنان كان صغيراً ويشمل عدداً ضئيلاً من القرى، وكان موزعاً على العائلات الأرستقراطيّة. وكان المزارع يتقاضى نسبة من الأرباح تتراوح بين ثلاثة أرباعها أو ثلثيها، أما بالنسبة للأراضي المرويّة فكان المزارع يتقاضى النصف من الأرباح.

الحياة الفكريّة والمدارس

انعدمت الحياة الفكريّة والثقافيّة، واستمرت هذه الحالة طوال عهد المماليك وازدادت مع العثمانيين، لأن أجواء الحرب والمنازعات والجوع والمرض وغير ذلك، كانت تمنع قيام نهضة أدبيّة؛ بالإضافة إلى العزلة التي كان العرب موضوعين فيها، وجهل حكامهم وقلة إدارتهم وثقافتهم.

لكن ما يمكن قوله هو أن المماليك اهتموا بإنشاء المدارس. خاصة في طرابلس، حيث أنشأوا أربعة منها أكبرها مدرسة القرطائيّة نسبة إلى مملوك من موالي قلاوون، والمدرسة الخاتونيّة نسبة إلى خاتون محظيّة أحد حكام الموالي للسلطان الأشرف.

إلى جانب المدارس ظهرت معاهد جديدة للتعليم الديني، أو ما يعرف بالتكيّة أو الزاوية الصوفيّة. وهذه التكيّات شبيهة بأديرة الرهبان المسيحيّة. وانتشرت هذه المعاهد في كل أنحاء سوريا ولبنان. أما في بعلبك، فقد كثرت المساجد والمدارس الوطنيّة وكانت اللغة السريانيّة هي اللغة المحكيّة المتبعة بين الموارنة المعزولين.

استعملت اللغة العربيّة جزئياً في الكتب الدينيّة، ولكن بأحرف سريانيّة، إلى أن انتشرت بشكل واسع في كافة بلدان الهلال الخصيب، واعتمدتها الطوائف المسيحيّة من يعاقبة ونساطرة وموارنة.

وفي العام ١٣٦٥ قام السلطان بسجن أساقفة من الموارنة في دمشق، بعد أن تعرضت مدينة الاسكندريّة لهجوم من قبل القبارصة. ومن بين الأساقفة، تمكن أسقف إهدن من الهرب قبل القبض عليه، واختبأ في مكان منعزل. وهناك كتب الأناجيل باللغتين السريانيّة والعربيّة، ولكن بالخط الكرشوني. وهذا يعني أن اللغة المتبعة في زمانه هي لغتان العربيّة والسريانيّة.

أما بالنسبة لأديرة الرهبان التي كانت مركز تعليم وتثقيف، فكان معلموها من الرهبان والقساوسة. وكان البناء يتضمن المدرسة والكنسية معاً. أما التعليم العالي فكان مخصصاً لفئة محدودة والذين يريدون الالتحاق بالرهبنة أو الكهنوت. ومن أهم ما قام به الرهبان هو استنساخ مخطوطات قديمة ونقلها من جيل إلى جيل عن طريق الدرس والتدريس.

تقسيم المناطق المحتلة

بعد أن احتل المماليك بلاد الشام، قسمت إلى ست ممالك، إضافة إلى نيابات مستقلة عدّة، كغزة، وحمص، وملطية. أما بالنسبة للممالك الشاميّة فهي دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماه، وصفد والكرك. ووضع المماليك على رأس كل مملكة نائباً يعينه السلطان من كبار الأمراء في القاهرة.

وكانت كل مملكة تتمتع باستقلال عسكري وإداري من خلال وجود جيش

وديوان خاص بها. أما بالنسبة للقرارات السياسيّة فكانت تصدر من قبل السلطان وحده في القاهرة، وعلى نوابه تطبيقها.

وكانت دمشق من أكبر الممالك الشاميّة؛ لذلك قسمت إلى أربع مناطق عرفت بالضفات. وضمت الضفة الساحليّة الساحل من بلاد فلسطين إلى الغرب ونهر الأردن، ومركزها غزة.

أما الضفة القبليّة فضمت حوران ومرتفعات الجولان وعجلون والببقاء وغور الأردن. مركزها بلدة أذرعات.

الضفة الشرقيّة ضمّت المنطقة الممتدة من جبل القلمون إلى شمال دمشق حتى بلاد حماه وسليمة. مركزها حمص.

الضفة الشماليّة ومركزها بعلبك. ضمّت نيابة البقاع البعلبكي ومركزها بعلبك. ونيابة البقاع العزيزي ومركزها كرك نوح. وولاية صيدا بما فيها جبل الشوف وولاية بيروت بما فيها جبل الغرب والمتن والجزء الأكبر من جبل كسروان.

أما المنطقة اللبنانيّة في هذه المملكة فقد شملت: الضنيّة، بشرّي، أنفة، جبيل، جبة المنيطرة وحصن عكار التي جعلت مركزاً لنيابة من نيابات المملكة.

أما مملكة الصفد فكان مركزها مدينة صفد في الجبل وضمت كامل الجليل من غور الأردن إلى البحر، ومن مجرى نهر الليطاني إلى مرتفعات فلسطين، وشملت هذه المملكة أيضاً ولايات جبل عامل وشقيف أرنون وصور.

الفصل السابع

التفاعل
بين اللبنانيين والصليبيّين

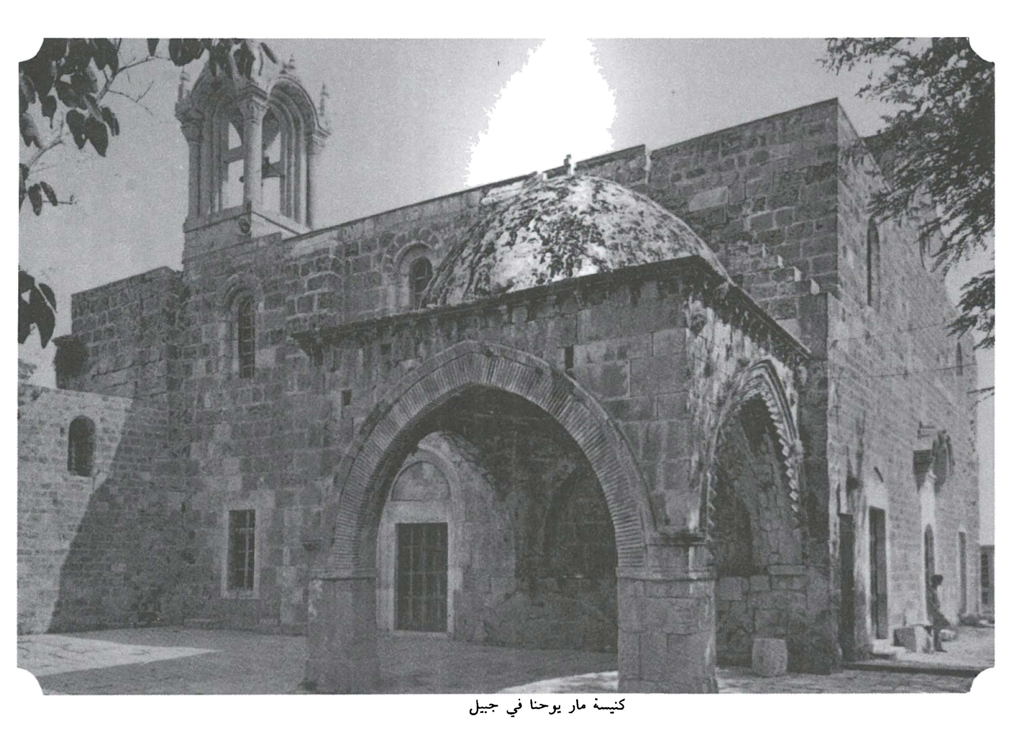
الصليبيون في الشرق

اكتسب الصليبيّون بقدومهم إلى الشرق معرفة القيام بأشياء كثيرة، منها استخدام القوس والقذائف الحارقة، ووضع حواجز على أبواب القلاع والحصون، واستعمال النار لإعطاء الإشارات، وحفر الأنفاق، واقتناء الأسلحة الثقيلة في ثيابهم، كما يفعل الفرسان المسلمون.

ولم تكن للحروب التي قام بها الصليبيون نتائج سلبيّة فقط، بل كانت هناك أيضاً نتائج إيجابيّة تكمن في فترات السلم بينهم وبين المسلمين. هذه الفترات كانت أطول من فترات الحرب، مما سمح لهم بالاختلاط اجتماعيّاً واقتصاديّاً. وتعرف الصليبيّون على الكثير من أساليب العيش والأطعمة المتنوعة الشرقية، كالسمسم والخروب والأرز والليمون والبرقروق وصاروا يستعملون التوابل في أطعمتهم، وكذلك الروائح العطريّة. وأكثر ما لفت انتباه الصليبيّين هو قصب السكر المزروع على الشاطىء اللبناني في سهول صور، والذي تزايدت زراعته بشكل ملحوظ، خاصة عند الفتح العربي لهذه البلدان. وقد وجد المصريون آنية كانت تستعمل مكيالاً للسكر كتب عليها كلمة سكر.

وإلى جانب الأطعمة الشرقيّة، أعجب الصليبيون كثيراً بالثياب والسراويل الواسعة والكوفية، ولبست نساؤهم الحجاب في الأماكن العامة. واشتهر السجاد الشرقي والستائر في أوروبا، كذلك الأقمشة والأنسجة كالدمقس، والأطلس والساتان. وامتلأت الأسواق الأوروبيّة بالآنيّة الخزفيّة والزجاجيّة الشرقيّة التي برع فيها أهل المدن اللبنانيّة منذ القديم.

لم يبرع أهل المدن اللبنانيّة بصناعة الآواني فقط، بل أيضاً بتربية دود الحرير منذ العهد البيزنطي. ومن المدن التي اشتهرت به مدينة صور التي كانت تصنع



كنيسة مار يوحنا في جبيل

الحرير السندي. أما عكا وبيروت واللاذقيّة فكان أهلها يصنعون الحرير السميك المقصب بخيطان ذهبيّة وفضيّة.

وأدّى اتساع العمليّات التجاريّة بين الصليبيّين والعرب، واستعمال العملة في تبادل السلع، إلى سكّ النقود والتداول بها. كما أنشئت قنصليات عدة في المدن الساحليّة. وأول قنصليّة أنشئت في عكا عام ١١٨٠.

على صعيد آخر، لم تلاقِ الحركة الفكريّة والأدبيّة التطور والانفتاح الذي لاقته الحركة الاقتصاديّة، خاصة التجارة التي بلغت ذروتها في تبادل السلع والمنتوجات الزراعيّة والصناعيّة. والركود الفكري بين الصليبيّين والعرب يعود لأسباب عدة، منها: رفع مستوى الحضارة الشرقية والتعصب الديني واللغة التي حالت دون التفاعل الفكري. واكتفي بترجمة بعض الكتب العربيّة إلى الأجنبيّة.

الكنائس في عهد الصليبيّين

تميز بناء القلاع بأنه يشبه إلى حدّ كبير البناء البيزنطي، أما الكنائس كان بناؤها يتبع الأسلوب الرومنسي والقوطي المعروف، وزخرفتها مستمدة من الفنّ البيزنطي مثل الأقواس ذات الرؤوس الحادة الموجودة في كاتدرائيّة طرطوس التي بنيت عام ١١٠٢، وسبق أن وجد مثلها في الغرب، وهذا يعني أن الصليبيّين أخذوا هذا الشكل من الأقواس عن الشرق. أما كاتدرائيّة نوتردام في صور التي بنيت عام ١١٢٧، فقد ضمّت أساقفة بيروت وصيدا وعكا الذين يعاونون رئيس أساقفة صور في القيام بعمله الرعوي. إلى جانب هذه الكاتدرائيّة، وكانت هناك كنيسة للقديس مرقس أنشأها أهل البندقيّة. لكن الملك الأشرف خربها وهدمها بعد أن هجرها الصليبيّون وتحولت كنيسة النبي إيليا إلى مزار إسلامي للخضر، والخضر في الإسلام يعني النبي إيليا أيضاً تحوّلت كنيسة القديس يوحنا التي أنشأتها الاسبتارية إلى جزء من الجامع الكبير وهو أكبر جامع في صيدا.

أما في بيروت، وهي من أغنى المدن اللبنانيّة بالآثار الصليبيّة، فكانت هناك

قلعة ظلّت قائمة حتى العام ١٨٥٦، وكان موقع برجها في ساحة البرج. وهناك أيضاً كنيسة يوحنا المعمدان التي أنشأها الملك بولدوين عام ١١١٠ بعد احتلاله المدينة. لكن المسلمين حوّلوها إلى جامع من أكبر جوامع العاصمة، ويقال أن هذه الكنيسة بنيت على أنقاض هيكل فينيقي. كذلك، حوّل المسلمون بعد استرجاع مدينة بيروت عام ١١٥١، كنيسة القديس يوحنا المعمدان إلى جامع، المعروف الآن بجامع العمري، وحّولوا أيضاً ديراً وكنيسة كانا للرهبان الفرنسيسكان إلى إسطبل للخيل.

من الكنائس التي ما تزال موجودة حتى اليوم الكنيسة الصليبيّة في جبيل التي أنشئت عام ١١١٥، وأصبحت اليوم كنيسة القديس مار يوحنا للموارنة. وكنيسة أخرى هي كنيسة مار يعقوب ما يزال فيها حائط واحد من عهد الصليبيّين. أما كنيسة مار فوكاس العائدة للأرثوذكس والتي ما تزال حتى اليوم، ودير البلمند الذي أنشىء عام ١١٥٧. وفي القرن الثامن عشر انتقلت ملكيّته إلى الروم الأرثوذكس. أما كاتدرائيّة القديسة مريم التي بنيت في أوائل القرن الثاني عشر فقد هدمت بسبب الزلزال الذي ضرب طرابلس عام ١١٧٠. ثم أعيد بناؤها في القرن الثالث عشر. لكن المسلمين، بعد احتلالهم طرابلس، دمروها وبنوا على أنقاضها الجامع الكبير.

معالم الازدهار

ساعدت الحروب الصليبيّة الحركة التجارية والحج إلى الأراضي المقدسة، ويظهر ذلك من خلال الروايات والأخبار التي تناقلها الرّحالة العرب وكان كلامهم كثيراً عن صور التي غمرها الازدهار والعمران كباقي المدن اللبنانيّة أيام الصليبيّين.

وذكر الرّحالة المغربي الإدريسي عام ١١٥٤ المهارة والجودة اللتين كانت تتمتع بهما صور في صناعة الأقمشة البيضاء. وكذلك وصف لنا صيدا والحياة فيها، فهي مدينة كثيرة السكان وأسواقها مزدحمة والأسعار فيها منخفضة وتحيط بها

الأشجار والبساتين. وأتى الرحالة اليهودي بنيامين التودلي الإسباني على ذكر الزجاج الذي اشتهرت صور في صنعه واكتشافها الصباغ الأرجواني. لكنه أتى أيضاً على ذكر الخراب الذي لحق بطرابلس من جراء الزلزال الذي وقع في القرن الثاني عشر، خاصة زلزال عام ١١٥٧ الذي قتل فيه أكثر من خمسمئة نسمة في مدينة حلب وعشرة آلاف في مدينة حماه، فضلاً عن الخراب والدمار اللذين لحقا بهذه المدن.

الكثير من الرحالة والسواح أعجبوا بجمال المدن اللبنانيّة وازدهارها، خاصة مدينة صور وأبراجها وأسوارها القويّة، ونظافة أسواقها، وطيبة أهلها، ومياهها العذبة. ونذكر منهم السائح الألماني تيودورس والرّحالة الأندلسي ابن جبير ووليم الصوري والراهب يوحنا فوكاس.

الصليبيّون والفكر العربي

لم يكن للحروب الصليبيّة وقع ملحوظ بالنسبة للحياة الفكرية والثقافية كما كان عليه وقع الحركة العمرانيّة والاقتصاديّة. إلا أنه يمكن القول أن الاتصال كان يحصل في الأماكن التي بنيت فيها القلاع والحصون بسبب الاحتكاك بين الصليبيّين والعرب.

أما العرب، وخاصة المسلمين، فلم يجدوا عند الصليبيّين ما يلفت نظرهم من أدب وثقافة وكانوا يعتبرون أنفسهم أرفع مستوى منهم. والدليل على ذلك ما جاء في مفكرة أسامة بن منقذ صاحب شيزر: «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة». ويروي في مفكرته بعض القصص التي عايشها عن عاداتهم، كالمبارزة بينهم للفصل بين المحق والمخطىء ورمي المتهم في الماء لمعرفة ما إذا كان مذنباً أو بريئاً. ويروي أيضاً عن الوسائل والعلاجات المتبعة لديهم في حقل الطب والتي هي بعيدة كل البعد عن الصحة والشفاء. وقد مات بعض ملوك الغرب بسبب علاج غير صحيح من قبل الأطباء الصليبيّين، كالملك بولدوين الثالث والملك أمكرك.

ومن الدلائل التي تظهر عدم التفاعل الاجتماعي بين الصليبيّين والعرب، أن قلّة قليلة من المسلمين كانت تتزوّج بأوروبيّة. وبعد القضاء على الصليبيّين بقيت عدة عائلات في البلد واندمجت مع أهلها بحيث فقدت أي أثر لأصلها اللاتيني. ولا شك أن هناك عائلات لبنانيّة تحدرت من أصل صليبي، أمثال عائلة الصليبي ودويهي وبردويل وفرنجية وطربيه ودريان، وجميعها عائلات تنتمي إلى الطائفة المارونيّة.

اختلاف اللغة والدين

من الأسباب التي حالت دون التفاعل الفكري والاجتماعي اختلاف اللغة والدين. تعلّم الصليبيّون اللغة العربية وأتقنوها في حين أن المسلمين لم يتعلموا اللغة اللاتينيّة أو الفرنسيّة. والسبب يعود إلى أن المسلم كان يتكلم لغة القرآن ويرى من الخطأ أن يتعلّم لغة الكفار، أي الصليبيّين. والكثيرون من الذين ولدوا في لبنان من الصليبيّين، كوليم الصوري ووليم الطرابلسي، كانوا يتقنون بشكل جيد التكلّم باللغة العربيّة المحكيّة والفصحى. ورأى الأمراء الصليبيّون وتجارهم ورهبانهم ضرورة تعلّم اللغة العربيّة بها كالملك ريموند الثالث الذي تعلّمها في أسره في حلب عام ١١٦٥، وأصبح يعرف عادات الإسلام وتقاليده.

أما بالنسبة للدين، يعتنق الإسلام الدين الحنيف، وهو دين يجمع ما بين مبادىء يهوديّة ومسيحيّة، ولا يرى اتباع هذا الدين ضرورة لاعتناق الديانة النصرانيّة، لكن بعض القصص تروي لنا اعتناق بعض الأفراد الديانة المسيحيّة، خاصة المرتزقة والعبيد والأسرى من المسلمين.

موارنة الشرق

كانت علاقة الصليبيّين بالشرق الأدنى جيدة، خاصة مع الموارنة. فالاضطهاد الذي تعرض له مسيحيو الشرق من قبل عمر بن عبد العزيز الأموي والمتوكل العباسي والحاكم بأمر الله الفاطمي جعلهم يتطلعون إلى الغرب.

وبالرغم من وجود علاقات طيبة بين الطوائف المسيحيّة، إلاّ أن أيّاً منها لم ينجح في الاتحاد مع الكنيسة البابويّة. وكلّ المحاولات التي بذلت باءت بالفشل. أما الموارنة، معتنقو أكبر الطوائف المسيحيّة وأكثرها تماسكاً ووحدة، فقد أقاموا علاقة جيدة مع الصليبيّين، خاصة في الحملة الصليبيّة الأولى، عندما ساعدوهم في إيجاد الطرق والمعابر. وأقاموا علاقة صداقة مع الفرنسيين عندما نزل الملك لويس التاسع في عكا، إذ جاء وفد مؤلف من خمسة وعشرين ألفاً من الموارنة حاملين معهم المؤن والهدايا. وكان الموارنة يتمتعون بامتيازات وحقوق لم تتمتع بها باقي الطوائف المسيحيّة كحق ملكيّة الأرض، والسماح لكهنتهم بخدمة القداس على المذابح اللاتينيّة.

وعندما احتلّ صلاح الدين مملكة بيت القدس، رحل الملك غوي دي ليزنيان إلى قبرص ورحل معه عدد كبير من الموارنة، ومكثوا في شمال نيقوسيا، ومع ذلك بقي الودّ قائماً بين الموارنة والغرب، خاصة عندما أوفد نابليون الثالث حملة فرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠، وعند وقوع لبنان تحت الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى.

وفي العام ١٢١٣ زار البطريرك أرميا العمشيتي روما، ولما عاد أدخل بعض التغييرات على خدمة القداس وسيامة الكهنة، وطقوس العبادة كتغطيس المعمود بالماء ثلاث مرات، وطلبة واحدة للثالوث، وتكريس الأحداث على أيدي المطارنة، ولبس كهنة الموارنة الزي اللاتيني والخواتم وحمل العكاز. وكانت الكنيسة المارونيّة الكنيسة الوحيدة بين الكنائس الشرقيّة التي تدعو إلى القداس بواسطة الجرس، في حين استعمل غيرهم النواقيس الخشبيّة، وهذا أيضاً تقليد لاتيني أدخل على الكنيسة المارونيّة، وبذلك تحوّل الطقس الماروني القديم إلى طقس لاتيني بدأ بشكل فعلي في عهد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٣. ولم تتحد الكنيسة المارونيّة مع الكنيسة البابويّة إلا عام ١٧٣٦، وأصبحت لهذه الكنيسة منزلة خاصة ومتميزة عند باباوات روما.

انتشار المسيحيّة

انتعشت الحياة الفكريّة والثقافيّة في الشرق الأدنى بسبب اعتناق بعض

المسلمين المسيحيّة؛ فالخسارة التي لحقت بالحملات الصليبيّة وانعدام الأسباب التي حثت الناس على الالتحاق بها، مهدت الطريق لفكرة جديدة هي جذب المسلمين إلى اعتناق الديانة المسيحيّة بطريقة ودّية وسلميّة.

وأنشأ الراهب الصليبي في الأرض المقدسة الرهبنة الكرمليّة، نسبة إلى قيامها في جبل الكرمل. وانتشرت هذه الرهبنة في سورية ولبنان. وجاء إلى عكا القديس فرنسيس الأسيسي في العام ١٢١٩ وأسس الرهبنة الفرنسيسكانيّة فيها. وانتشرت هذه الرهبنة في المدن اللبنانيّة كمدينة طرابلس وبيروت. وكذلك الأمر بالنسبة للرهبنة الدومينيكانيّة. ووضع أحد أساقفة الدومينيكان كتاباً نادى بفكرة «نريد مرسلين لا جنوداً لاسترداد الأرض المقدسة».

وانصب اهتمام الإكليروس اللاتيني على فكرة واحدة، هي انتشار المسيحيّة واعتناقها في الأراضي غير المسيحيّة، بعد أن كان همّهم توحيد جميع الطوائف المسيحيّة. وساعد الإكليروس على انتشار المسيحيّة الإرساليّتان الكبوشيّة واليسوعيّة اللتان تمركزتا في لبنان والعالم العربي.

المراجع

١ ـ **منطلق تاريخ لبنان** ـ دكتور كمال الصليبي ١٩٧٩ ـ دار النهار للنشر.

٢ ـ **النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة** ـ القاضي بهاء الدين بن شدّاد، تحقيق الدكتور جمال الشيّال، القاهرة ١٩٦٤.

٣ ـ **تاريخ لبنان** ـ فيليب حتّي، دار الثقافة ١٩٦٨.

٤ ـ **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** ـ فيليب حتّي، دار الثقافة.

٥ ـ **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني** ـ محمد علي مكّي، دار النهار للنشر.

٦ ـ **تاريخ سوريا** ـ جرجي ينّي، دار لحد خاطر.

٧ ـ **الصليبيّون في الشرق**.

القسم الثاني

لبنان وعصر النهضة

الفصل الأوّل

العوامل المؤثّرة في عصر النهضة

تضافرت عوامل عديدة في تحقيق النهضة الفكريّة في الشرق العربي الذي كان يخضع للسيطرة العثمانيّة. وكان لبنان جزءاً من هذه المنطقة، وإن كان يختلف عن بقيّة المناطق العربيّة بتمتّعه بنوع من الاستقلال الذاتي في ظلّ المتصرفية. وكانت الأحداث التي تجري في إحدى تلك المناطق تؤثر بشكل أو بآخر على المناطق الأخرى، وعلى مختلف الصعد. ولعلّ الحملة العسكريّة التي قام بها نابليون بونابرت على مصر شكّلت الحافز الأهمّ لانطلاق النهضة الفكريّة في مختلف المناطق العربية وخصوصاً في لبنان ومصر.

وساهمت عوامل مختلفة في تحقيق هذه النهضة، أبرزها:

١ ـ **البيئة السياسيّة**: في ظلّ حكمهم الاستبدادي الذي فرضوه على المناطق العربيّة، سعى العثمانيون دائماً إلى الهيمنة على مختلف مظاهر الحريّة، وأهمّها حريّة التفكير والعمل السياسي. ونتيجة لذلك، طغى العنصر التركي على الوضع السياسي، وجُرّد العرب من حقوقهم السياسيّة شيئاً فشيئاً، ممّا استدعى تحرّكات على خطوط مختلفة سعياً إلى إصلاح الأمور قبل أن تزيد تفاقماً. وبرزت في هذا المجال أربعة اتجاهات:

ـ **الأوّل**: يدعو إلى جمع العرب تحت لواء الدولة العثمانيّة بعد وضع دستور جديد للبلاد يأخذ في الاعتبار حقوق المناطق العربيّة. وقد نجح هذا التيّار في دفع الدولة العثمانيّة إلى إصدار مراسيم إصلاحيّة تبعها دستور جديد وضعت والٍ عثماني يُدعى مدحت باشا الذي كان مصيره النفي على يد السلطان عبد الحميد الثاني، وتمّ تعليق العمل بدستور مدحت باشا.

ـ **الثاني**: تمثّل بتيّار عنصري تركي عمد بعد وصوله إلى الحكم، إلى حصر المراكز العليا في الدولة بالأتراك، ودعا إلى تتريك العرب وفرض اللغة التركيّة عليهم كلغة رسميّة وحيدة، وحتى ترجمة القرآن إلى اللغة التركيّة.

هذا التّيار رفضه العرب وسعوا إلى مناوأته من خلال جمعيّات، بعضها يعمل في السرّ، طالبت بالحقوق العربيّة المسلوبة.

ـ **الثالث**: كان اتجاهاً قومياً عربياً تمثل في عدد من الجمعيّات التي تأسّست في الداخل والخارج. وكان من أبرزها «رابطة الوطن العربي»، و«العربية الفتاة». وقد ضمّت إحدى الجمعيّات في بيروت الأديبين إبراهيم اليازجي ويعقوب صرّوف.

ويمكن تلخيص أهداف التيّار الثالث بما يلي:

أ ـ تحقيق الاستقلال الكامل للبنان وسوريا.

ب ـ جعل اللغة العربيّة اللغة الرسميّة في المناطق العربيّة.

ج ـ إحقاق الحريّة في الفكر والمعتقد السياسي.

د ـ فتح أبواب العلم والثقافة أمام الجميع في المناطق العربيّة.

ـ **الرابع**: يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلاميّة في الدولة والتقيّد بجميع أحكامها. إن هذه التيّارات الأربعة سيعمل كلّ منها بحسب الظروف التي توفّرت له، إلى أن تقع الحرب العالميّة الأولى، وينضمّ العثمانيون إليها، وينتهي بهم الأمر إلى الانسحاب من جميع المناطق العربيّة ودخول الحلفاء إلى بعضها. عندئذٍ، تغيّرت الاتجاهات السياسيّة مع تقاسم المنطقة بين الإنكليز والفرنسيّين.

٢ ـ **البيئة الاجتماعية**: خلال القرنين الأخيرين من الحكم العثماني (الثامن عشر والتاسع عشر)، كانت المناطق العربيّة تعيش المرحلة الأكثر تخلّفاً في تاريخها. ويمكن اختصار ذلك بما يلي:

ـ سيطرة الإقطاعيّة على النواحي السياسية والاجتماعيّة والدينيّة والمعيشيّة.

ـ تطبيق سياسة الحكم المطلق من خلال الوالي التركي الحاكم.

ـ ضرائب مرتفعة وعشوائيّة.

ـ سيطرة الفساد في مختلف مرافق الدولة ودوائرها الحكوميّة.

ـ إحتقار المرأة وسلبها حقوقها وحريتها.

٣ ـ البيئة الاقتصادية: كانت الحياة الاقتصاديّة في مختلف المناطق العربيّة ما تزال في طور البدائيّة، وخصوصاً في مجال الزراعة التي كانت تعتمد على الوسائل القديمة التي لا تستثمر الأرض كما يجب، ممّا يعني مواسم زراعيّة غير كافية. وكان المزارعون يعتمدون على مورد رزق آخر يتمثّل في تربية الماشية والدواجن.

أما الصناعة فكانت بسيطة جدّاً وتعتمد على الحرف اليدويّة التي كان معظمها متوارثاً أباً عن جدّ، من دون أن تطرأ عليها أيّ تطويرات على قاعدة العلم أو استخدام الآلة لتحقيق إنتاج أفضل.

وأما التجارة فكانت القطاع الوحيد الذي يشهد بعض الازدهار. لكنها كانت تتأثّر سلباً بالأحداث الأمنيّة التي كانت تطرأ بين فترة وأخرى.

٤ ــ **البيئة الفكرية**: سبقت عصر النهضة مرحلة قاتمة عرفت بعصر الانحطاط. وعلى سبيل الحصر، كان الأدب قد فقد بريقه تماماً وأصبح مجرّد كلمات منمّقة مزخرفة لا روح فيها ولا فكرة جديدة تطرح موضوعاً معاصراً أو معاناة إنسانيّة تلمّ بفئة معيّنة من الناس، وكم من معاناة عاشها الناس خلال تلك المرحلة، وخصوصاً خلال القرن الثامن عشر وجزء كبير من القرن التاسع عشر.

إن معظم ما كان ينظم من الشعر في ذلك كان صاحبه يطلقه في مناسبة معيّنة مقابل أجر يتقاضاه، كمدح أمير أو والٍ أو شيخ أو رجل غنيّ ما، وقد تكون المناسبة عرساً أو مأتماً أو أيّ مناسبة من تلك التي تكثر عند الأغنياء. وكلّ ذلك كان يتمّ في غياب أيّ نقد بنّاء يهدف إلى الإصلاح. ولا غرو في ذلك، فغياب الناقد المثقّف لمصلحة الناقد الذي يجري وراء منفعة مادّية معيّنة، أتاح لكلّ من صنّف نفسه، أو تصنّف، في فئة «شاعر»، أن يطلق لمخيّلته الكسيحة العنان ويروح يرصف الكلمات رصفاً مشبعاً بالتّزلف، وهو يظنّ نفسه مغموراً بعالم من الوحي غير متاح لسواه «. . . فلا مصابيح عندنا بل حباحب»، على حدّ تعبير ميخائيل نعيمة، أحد أركان عصر النهضة في بداية القرن العشرين.

نموذج رثائي من مرحلة ما قبل النهضة

هوى ذلك البدر المنير لقطره	فمن بعد في العلياء لا تنظر البدرا
فأصبح هذا الكون عادم ملكه	وأصبحت الخلاّن لا تعرف الصبرا
فبالله نخْ واندب هماماً مجدّلاً	وشهماً له في صعقه الآية الكبرى
أديباً خطيباً مصقعاً متأنقاً	يساقط من فيه اللآلىء والدُّرّا
فوا حرقتي من ذكر أوصافه التي	تثير شجوني والبرايا بها أدرى

أما المدارس فكان وجودها قليلاً جدّاً، ويقتصر على بعض الأديرة والجوامع وساحات القرى (تحت السنديانة). فالأميّة كانت متفشّية بين أفراد الشعب، وسعيد الحظ كان من أتيح له قراءة مقاطع مختلفة من الكتب المقدّسة، وكتابة اسمه وبعض العبارات الدارجة.

فإذا كانت المدارس قليلة، فإن المكتبات والكتب كانت شبه نادرة، والمكتبات الموجودة كان محتواها يقتصر على عدد قليل من المخطوطات. وقد امتدّت يد الجهل والظلم أكثر من مرّة لتنال من النتاج الفكري الموجود في هذه المكتبات. ففي عهد والي عكّا أحمد باشا الجزّار أُحرقت مجموعة من المخطوطات بعد إخراجها من مكتبة دير المخلّص قرب صيدا.

إن هذه العوامل، مجتمعة أو فرادى، ساهمت في انحطاط المستويين الفكري والثقافي في لبنان. فهموم الأمن والسياسة وتأمين لقمة العيش تضافرت لتصرف الإنسان اللبناني، فرداً ومجتمعاً، عن الاهتمام بالشوؤن الفكريّة والثقافيّة، وفرضت عليه أن يقف على مسافة بعيدة عن الحرف والكتاب والمدرسة.

فكان لا بدّ من خلق حوافز جدّية وأدوات فاعلة تدفع عن اللبناني ظلمة الجهل وترفع عنه عبوديّة الأميّة. وهذه الحوافز والأدوات كان بدىء بالتحضير لها خلال عهود مختلفة وترعرعت بمعظمها خارج لبنان لتعود إليه حاملة مشعل العلم وحريّة المعرفة.

الفصل الثاني

على الطريق

لم يعرف لبنان مرحلة من الاحتلال أصعب وأقسى من القرون الأربعة التي عاشها تحت وطأة الحكم العثماني، وذلك بسبب سياسة العزل التي اعتمدها العثمانيّون للتضييق على الحكم الوطني في لبنان وإدخاله تحت الحكم المباشر للباب العالي. وقد جعلوا حكم الولايات المحيطة بلبنان في أيدي ولاة عثمانيّين نفّذوا «بإخلاص» سياسة الدولة العليّة، وعملوا بقدر استطاعتهم على مضايقة الجبل خلال العهدين المعني والشهابي، إلى أن انتهى الأمر بوضع اليد العثمانية على لبنان وإدخاله تحت حكم الأستانة المباشر.

والضغوط التي مارسها العثمانيّون على لبنان شملت النواحي العسكريّة والاقتصاديّة. وسعوا إلى القضاء على الوعي الاجتماعي والمستوى الثقافي عبر أجواء عدم الاستقرار التي كانوا يشيعونها في الإمارة اللبنانيّة، على الصعيدين الأمني والاقتصادي.

ورغم ذلك، قيّض الله للبنانيّن أن ينعموا بمراحل مختلفة في الزمن من الاستقرار السياسي والأمني والاقتصادي، في عهود بعض الأمراء البارزين، ممّا ساعد في تنشيط الحركة الثقافيّة والعلميةّ في البلاد، تلك الحركة التي ستشكّل أرضيّة مناسبة لنموّ نهضة فكريّة وطنيّة واجتماعيّة، في مرحلة لاحقة، سيكون لها دور أساسيّ في انطلاق عصر النهضة في مختلف المناطق العربيّة منذ أواخر القرن التاسع عشر.

مدرسة روما المارونيّة

في العام ١٥٧٧، تلقّى البطريرك الماروني مخايل الرزّي رسالة من قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر تتعلّق بإنشاء مدرسة خاصة للطلاب الموارنة في روما.

وفي عهد البطريرك الرزّي، دشّن البابا نفسه «مدرسة روما المارونيّة» سنة ١٥٨٤. وقبل إنشاء هذه المدرسة، كان الطلاب اللبنانيّون المتفوّقون في مدارس الإرساليّات يرسلون إلى المدرسة الشرقيّة في روما لمتابعة دروسهم.

وكانت مدرسة روما المارونيّة تعنى بتدريس اللاهوت، وقد بدأت باستقبال عشرين طالباً فقط.

وخرّجت هذه المدرسة عدداً مهمّاً من اللاّهوتيّين الذين انضووا في الإكليروس الماروني، وتسلّموا مراكز في الكنيسة المارونيّة، ودأبوا على ضمّها إلى الكرسي الرسولي، واختار بعض هؤلاء نشر حضارة المسيحيّين الشرقيّين في بعض أنحاء أوروبا، وخصوصاً في فرنسا التي كانت تربطها بالموارنة علاقات حسنة.

وكان من أبرز الطلاّب الذين تخرّجوا من «مدرسة روما المارونيّة» وعملوا في ترجمة الآداب والفلسفات الغربيّة، وعلّموا وخطّوا مؤلفات خاصّة ممهّدين للنهضة الفكريّة التي بدأت ملامحها في أواخر القرن التاسع عشر:

أوّلاً: العاملون في فرنسا:

ـ جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ ـ ١٦٤٨): درّس اللغتين السريانيّة والعربيّة في روما، ثمّ انتقل إلى باريس حيث ترأس دائرة اللغات الساميّة في «الكليّة الملكيّة». ترجم التوراة إلى العربيّة والسريانيّة ولغات أخرى، كما ترجم كتباً أجنبيّة أخرى. وجمع قواعد اللغة العربيّة في كتاب يعتبر الأقدم في هذا المجال.

ـ حنّا الحصروني: ولد في حصرون. رافق زميله الصهيوني إلى باريس وعمل معه في «الكليّة الملكيّة» وساعده في ترجمة بعض الكتب إلى اللاتينيّة.

ـ إبراهيم الحاقلي: ولد في حاقل (قضاء جبيل). نال دكتوراه مزدوجة في الفلسفة واللاهوت. عاد إلى لبنان وأمضى فيه أربع سنوات كمستشار ومرسل للأمير المعني فخر الدين الثاني. انتقل إلى إيطاليا حيث درّس اللغات الشرقيّة في جامعة بيزا، ثمّ إلى باريس حيث خلف جبرائيل الصهيوني في «الكليّة الملكيّة». ترك نحو ٦٤ مؤلّفاً في مجالات مختلفة، أبرزها الكتب التي تناولت الليتورجيا (خدمة القدّاس) ومؤلّف في قواعد اللغة السريانيّة.

ثانياً: العاملون في إيطاليا

ـ إسحق الشدراوي: عمل في تعليم اللغات الشرقيّة، وألّف سنة ١٦١٨ كتاباً في قواعد السريانيّة جعله مبسّطاً وفي متناول كلّ من يريد تعلّم اللغة. وفي العام ١٦٣٦، ألّف كتاباً آخر في قواعد السريانيّة للذين يعرفون اللغة. وأصبح مرجعاً في السريانيّة للمستشرقين ولمعاصريه من روّاد اللغة. علّم اللغتين العربيّة والسريانيّة في أكاديميّة ميلانو وأشرف على الجزء الشرقي من مكتبتها. ثم انتقل إلى فلورنسا فبيزا حيث علّم اللغات الشرقيّة. بعد ذلك عُيّن مطراناً على أبرشيّة طرابلس.

ـ نصرالله شلق: نال الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت. علّم اللغتين العربيّة والسريانيّة في سبينزا بين ١٦١٠ و١٦٣١. وقام بالدور نفسه في مؤسّسة القديس بطرس في مونتوريو. ألّف قاموساً للغتين العربيّة واللاتينيّة ليستفيد منه طلاّبه في دراسة العربيّة وفهمها.

ـ يوسف السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨): ولد في طرابلس وسافر إلى روما وهو في الثانية عشرة من عمره، وبقي فيها حتى وفاته. اهتمّ بإجراء دراسات وأبحاث في اللغات الشرقيّة وخصوصاً السريانيّة والعبريّة والفارسيّة وغيرها، وأنتجت هذه الأبحاث مؤلّفاً دعاه «المكتبة الشرقيّة» لا يزال حتى اليوم مرجعاً في ما يتعلّق بتاريخ الكنيسة في الشرق. أدخل إلى مكتبة الفاتيكان عدداً مهمّاً من المخطوطات الشرقيّة (٤٠٠ مخطوط). عمل مؤرّخاً لدى مالك نابولي وصقليّة، وألّف كتاباً ضخماً في تاريخ مملكته. كتب مؤلّفات عديدة تناولت قواعد بعض اللغات الشرقيّة، التاريخ، اللاهوت، والحقوق.

ثالثاً: في إسبانيا والبرتغال:

ـ ميخائيل الغزيري (١٧١٠ ـ ١٧٩١): ولد في طرابلس. انتقل إلى إسبانيا سنة ١٧٥٠ بعدما أنهى دروسه في روما، وأصبح ناظراً في المكتبة الملكيّة. وبعد عامين، أصبح عضواً في الأكاديميّة الملكيّة للتاريخ بعدما عمل لفترة ترجماناً وأستاذاً للّغات الشرقيّة. كُلّف بوضع فهرسة للمخطوطات الشرقيّة الموجودة في

المكتبة، فأنجز عمله في مجلّدين خلال عشر سنوات.

رابعاً: في لبنان:

ـ جرجس عميرة: من الطلاّب القدامى في مدرسة روما المارونيّة. عاد إلى لبنان بعد إنهاء دراسته وتأليف كتاب في قواعد السريانيّة. وبعد انتخابه بطريركاً، أسهم في اعتماد التقويم اللاتيني للأعياد المسيحيّة وتطبيقه على الطقس الماروني.

ـ اسطفان الدويهي: (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤)، ولد في إهدن، وانضمّ إلى مدرسة روما المارونيّة في الحادية عشرة من عمره، وأمضى فيها أربعة عشر عاماً، حيث درس اللغات الإيطاليّة واللاتينيّة واليونانيّة والفلسفة. وبعد عودته إلى لبنان، انصرف إلى الكتابة والتأليف. وقد نشرت مؤلفاته بعد نحو قرنين على وفاته. أبرزها: «تاريخ الطائفة المارونيّة» (١٨٩٠)، ومقتطف من «تاريخ الأزمنة» (١٩٥٠). وفي العام ١٦٧٠، ارتقى إلى سدّة البطريركيّة المارونيّة، لكن عهده لم يكن هادئاً، واضطرّ مراراً، تحت وطأة الاضطهاد، للهرب من مقرّ البطريركيّة في دير مار قزحيا في قنوبين. وقد نقل عنه المطران يوسف الدبس قوله عن عهده أنه «ناله من البلاء وأصابه من الاضطهاد ما لا يمكن وصفه».

ـ جرمانوس فرحات (١٦٧٩ ـ ١٧٣٢): ولد في حلب (سوريّا) وتلقّى علومه في مدرستها المارونيّة التي أسّسها الأب طولاي، أحد الطلاب القدامى في مدرسة روما المارونيّة. تعلّم العربيّة والسريانيّة والإيطاليّة، ودرس الفلسفة واللاهوت. أسّس في مدرسته جمعيّة أدبيّة ومكتبة غنيّة بالمخطوطات الشرقيّة. ألّف عدداً من الكتب في اللاهوت والليتورجيا والفلسفة والأدب والتاريخ والشعر وغيرها. وهو يُعتبر من روّاد النهضة الأدبيّة العربيّة.

ومن الأسماء الأخرى البارزة التي تخرّج أصحابها من مدرسة روما المارونيّة، نذكر مرهج الباني، ابن أخ إبراهيم الحاقلي، يوسف لويس السمعاني، بطرس مبارك، أندراوس اسكندر، اسطفان السمعاني، وسركيس الرزّي.

* * *

أسهمت مدرسة روما المارونيّة بالأعلام الذين تخرّجوا منها في التحضير للنهضة الفكريّة العربيّة، وخصوصاً اللبنانيّة، من خلال الانتاج الغزير والقيّم الذي

تركه هؤلاء في مجال التأليف والترجمة، ممّا ساعد اللبنانيين على الاطّلاع على حضارة الغرب وأفكاره، والغرف منها، وإخراج اللغة والأدب العربيّين من القمقم الذي حبسهما فيه الانغلاق والعزلة اللذان فرضهما النظام العثماني لتجويع الإنسان إلى المعرفة والعلم.

عهد فخر الدين

لعب الأمير فخر الدين الثاني دوراً بارزاً في تحريك عجلة الحياة الثقافية في لبنان، وخصوصاً بعدما رجع إليه من غربته القسريّة في إيطاليا. فالاستقلال شبه التام الذي نعم به لبنان خلال عهده، ساعده على التطلّع نحو الغرب الأوروبّي والتفاعل الحضاري معه عبر وجوه متعدّدة.

ففي العام ١٦١٠، دخلت أوّل مطبعة عرفها الشرق إلى لبنان، وكان مركزها في دير مار أنطونيوس قزحيّا في الشمال، وقد اعتمدت الحرف السّرياني.

وبنتيجة الاتفاقات التي عقدها فخر الدين مع فرنسا وإيطاليا، فتحت أمام اللبنانيّين أبواب مختلفة لتحصيل الثقافة والعلم، مستفيدين بذلك من الامتيازات التي كانت يتمتّع بها بعض الدول الأوروبيّة في لبنان، والتي منحها الباب العالي. يضاف إلى ذلك الدور الذي قامت به مدرسة روما المارونيّة في هذا المجال.

وقد شّجع الأمير المعني مجيء الإرساليّات الأجنبيّة إلى لبنان، وبالتحديد الإرساليّات الكاثوليكيّة. فجاء الآباء الكبّوشيون الذين أسّسوا في صيدا أوّل إرساليّة أجنبيّة مسيحيّة في لبنان. ثم أقاموا فروعاً أخرى في كلّ من بيروت وإهدن وطرابلس. وقام الكبّوشيون بمهمّتين: فتح المدارس للبنانيّن وتوسيع انتشار الديانة المسيحيّة في لبنان.

بعد ذلك، جاء الآباء الفرنسيسكان وأسّسوا أوّل مركز لهم في بلدة إهدن. ومع هاتين الإرساليّتين، بدأ انتشار اللغات الأجنبيّة في صفوف عامّة الناس وانفتحت أمام اللبنانيّين مجالات التعرّف إلى الآداب الأجنبيّة والتفاعل حضاريّاً مع المبادىء الإنسانيّة السائدة في أوروبا، والتي كانت تدعو إلى تحقيق العدل والحريّة والكرامة بين الناس.

عهد بشير الثاني

تابع الأمير الشهابيّ سياسة أسلافه في مجال تشجيع الثقافة والعلم في منطقة الجبل والمناطق التي كان يضمّها إلى إمارته في الفترات التي كان فيها سيف التّسلط مرفوعاً عن رأسه. فتابعت الإرساليّات الأجنبيّة مجيئها إلى لبنان وتأسيس أديرة ومدارس لها في مختلف المناطق. وكان أبرزها وصول أوّل مرسل أميركي إلى بيروت سنة ١٨٢٣، موفداً من قبل مجمع الإرساليّات الأميركي. وكان يدعى بلّيني فسك. وقد بقي في لبنان حيث أسّس أوّل إرساليّة أميركيّة فيه، ودفن في مدفن الإرساليّة بعدما أدركه الموت باكراً.

... وكانت النهضة الأدبيّة التي نشأت في لبنان عند مطلع القرن التاسع عشر عاملاً في تعزيز اسم «جبل لبنان» وإضفاء معنى جديد عليه. فأعطاه الشعراء الذين كانوا في بلاط الأمير بشير الثاني محتوى عاطفياً ووطنياً يشير إلى تباشير الوعي الوطني عند اللبنانيين. ومن ذلك أن ناصيف اليازجي في قصيدة له، دعا الأمير بشير بطور لبنان العظيم وشخصه. كما أنه في قصيدة أخرى أثنى على الأمير للمكانة التي احتلها لبنان في عهده، فقال:

ألبست لبنان الضياء كأنما ... جبريل فوق الطور منه نداء

أما نقولا الترك، وهو شاعر آخر من شعراء الأمير، فإنه شارك اليازجي إشارته إلى الأمير كدعامة لبنان، وقال في مدحه عند عودته منتصراً من إحدى المعارك في ١٨١٠:

هو السيد البشير الفتى الذي ... هو الركن فيه طود لبنان يعمر

وتابع فقال في قصيدته:

وشرّف أوطاناً به طاب عيشها ... وأنشأ لها شأناً إلى الدهر يدخر

التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث ـ إيليا حريق (ص ٢٨)

ثمّ نقل الأميركيّون مطبعتهم التي أسّسوها في مالطة إلى لبنان سنة ١٨٣٤، وكانت تطبع مؤلفات أو مخطوطات باللغة العربيّة.

وعلى صعيد المبادرات المحليّة، تأسّس في عهد الأمير بشير الثاني عدد من المدارس التي أسهمت في نشر العلم والثقافة بين اللبنانيّين. وتحوّلت مدرسة عين ورقة التي كانت تدرّس اللاهوت إلى معهد على الطراز الأوروبي. وقد تخرّج منها عدد من المفكّرين، أبرزهم: المطران يوسف الدبس (١٨٣٣ ـ ١٩٠٧) الذي أصدر عدداً من المؤلّفات التي تناولت تاريخ لبنان والمنطقة (تاريخ سوريّة الديني والدنيوي)، والمعلّم بطرس البستاني ورشيد الدحداح. وهذان الأخيران كانا من المقرّبين إلى الأمير الشهابي.

وبعدما توطّدت علاقات الأمير بشير بالمصريّين، أرسل عدداً من الطلاّب اللبنانيّين إلى مصر ليدرسوا الطبّ في القصر العيني الذي أسّسه محمد علي على النمط الأوروبي.

وعندما دخل الجيش المصري إلى لبنان بقيادة إبراهيم باشا، أبقى القائد المصري على حريّة عمل الإرساليّات الأجنبيّة ضمن نطاق التعليم. فاستمرّ توافد هذه الإرساليات، بحيث لم تعد تقتصر على الكاثوليكيّة الآتية من إيطاليا وفرنسا، وإنّما جاءت إلى لبنان إرساليّات بروتستانتية من ألمانيا وإنكلترا والولايات المتحدة الأميركيّة، وأورثوذكسيّة من روسيّا. وأدّى التنافس بينها إلى فوائد جمّة كانت لمصلحة اللبنانيّين.

عهد القائمقاميتين

بعد نهاية الإمارة الشهابيّة، عاش لبنان فترة قاسية من الأحداث الدامية التي كانت سبباً في شلّ النشاط الثقافي في مختلف المناطق إلى حدّ بعيد، واستمرّ ذلك حتى بداية عهد المتصرفيّة. ولم تسجّل تلك الفترة سوى إنجازات قليلة، أهمها:

ـ معهد اللاهوت اليسوعي في غزير (١٨٤٦).

ـ مدارس داخليّة وخارجيّة بدأت بإنشائها راهبات القديس يوسف ابتداء من

سنة ١٨٤٦ في عدد من المناطق، وخصوصاً في بيروت وصيدا وصور وحمانا.

ـ مطبعة القديس جاورجيوس (١٨٤٧).

ـ المطبعة الكاثوليكيّة (١٨٤٧).

ـ مدرسة عبيه (١٨٤٨).

ـ مطبعة عربيّة في دير طاميش في كسروان (١٨٥٥)، حيث تأسّست في مطلع القرن التاسع عشر مطبعة سريانيّة.

عهد المتصرفيّة

ومع بداية عهد المتصرّفية، وعودة الهدوء والأمن إلى البلاد بشكل مقبول، عادت الحركة الثقافيّة لتنشط بشكل أكثر كثافة، حيث كان للمتصرّفين دور بارز في نشر العلوم والآداب وتشجيع فتح المدارس الخاصّة، من وطنيّة وأجنبيّة، وإنشاء المطابع لنشر الكتب والصحف والمجلاّت.

وفي الوقت نفسه، استمرّ توافد الإرساليّات الأجنبيّة، وأولاها كانت الإرساليّة الإنكليزيّة ـ السوريّة التي جاءت إلى لبنان سنة ١٨٦٠ وأسّست مدارس عديدة توزّعت في بيروت وبعلبك وزحلة وشملان وعين زحلتا وغيرها.

وفي العام ١٨٦٦، تأسّست الجامعة الأميركيّة في بيروت، وعُرفت في البداية باسم الكليّة السوريّة الإنجيليّة. وفي العام نفسه، أسّس الأميركيّون مدارس في سوق الغرب وعبيه وطرابلس وصيدا وحاصبيّا.

وكان الأوروبيّون يواظبون على تأسيس المراكز التربويّة في لبنان، وقد أسّس الفرنسيّون سنة ١٨٧٥، جامعة القديس يوسف في بيروت، أو الجامعة اليسوعيّة. وهي نفسها معهد اللاهوت اليسوعي الذي كان مركزه في غزير، فتمّ نقله إلى بيروت التي كانت حينئذٍ خارج حدود المتصرّفيّة.

ويبدو أن هذا التهافت الأجنبي على لبنان قد أثار همّة العثمانيّين، أو غيرتهم، فأمروا بفتح عدد من المدارس «السلطانيّة» في كلّ من بيروت وطرابلس وصيدا.

وفي عهد المتصرّفيّة، نشط العمل في مجال الصحافة، فأنشأ خليل الخوري

صحيفة «حديقة الأخبار» سنة ١٨٥٨، ثم صدرت مجلّة «الجنان» للمعلّم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠. وفي السنة نفسها، أصدر الآباء اليسوعيّون جريدة «البشير». وصدرت «لسان الحال» لخليل سركيس سنة ١٨٧٧، و«بيروت» لمحمد رشيد الدّنا سنة ١٨٨٦.

ولمّا بدأت السياسة تتدخّل في حرّية العمل الصحافي، اضطرّ البعض إلى أن يقصد مصر حيث كانت الصحافة تتمتّع بحرّية أكبر. فأسّس كلّ من سليم وبشارة تقلا صحيفة «الأهرام» سنة ١٨٧٥، وهي لا تزال حتى اليوم من أهم الصحف المصريّة، وأصدر فارس نمر ويعقوب صرّوف «المقتطف» سنة ١٨٧٦، ثم «المقطم» سنة ١٨٨٨، وجرجي زيدان صحيفة «الهلال» سنة ١٨٩٢، وإبراهيم اليازجي «الضياء» سنة ١٨٩٩.

وقد ساهمت هذه الحركة الصحافيّة الناشطة في نشر الأدب والشعر والثقافة وتوعية الحسّ الوطني والعمل على نبذ الأحقاد والتمسّك بالحريّة والعدالة، بالإضافة إلى الاهتمام بشؤون اللغة العربيّة وترسيخ قواعدها، وبعث روح جديدة فيها تأخذ في عين الاعتبار الاختراعات الحديثة الكثيرة والمفردات التي يجب إدخالها على اللغة، والمفردات التي يجب التخلي عنها بعدما فاتها الزمن.

المدارس الوطنيّة

إن النجاح الذي حقّقته مدارس الإرساليّات الأجنبيّة على صعيد التعليم والتثقيف، دفع باللبنانيّين إلى إنشاء مدارسهم الوطنيّة الخاصة. وانتشرت المدارس في مختلف المناطق في ظلّ تنافس إيجابي بين مختلف الطوائف. وبعض هذه المدارس لا يزال قائماً حتى اليوم.

ومن أبرز المدارس التي ولدت خلال القرن التاسع عشر:

ـ مدارس في بكفيّا ومحيطها أسّستها رهبنة وطنيّة معروفة بجمعيّة المريميات، ابتداءً من العام ١٨٥٣.

ـ المدرسة الوطنيّة للمعلّم بطرس البستاني، سنة ١٨٦٣.

. . . حمل الإكليروس معظم عبء التعليم، فهو الذي أنشأ المدارس، باستثناء ١٧ مدرسة أنشأتها الرهبانية اللبنانية البلدية وست مدارس أنشأتها الرهبانية اللبنانية الحلبية. وكانت أهم المدارس، أمثال عين ورقة ومار عبدا هرهرية وروميه وريفون تحت رقابة البطريرك المباشرة.

وكان الإكليروس يتلقى المساعدة في نشاطه التعليمي من بعض أبناء الطبقة الأرستقراطية وذلك بمنحه أحياناً قطعاً من الأرض. غير أن المساعدة الأوفر جاءت من القرويين أنفسهم. فكانوا يدعون الإكليريكيين، ولا سيما الرهبانية اللبنانية، لفتح المدارس في قراهم ويتبرعون بالممتلكات التي غالباً ما كانت تكفي لاعالة معلّم تقدمه الرهبنة لقاء هذه الممتلكات. وإضافة إلى ذلك، كان معظم رجال الدين يهبون أملاكهم لصالح المدارس أو لفتح مدارس جديدة، كما يتضح من الوثائق التي تعود إلى تلك الفترة.

وباستثناء بعض المدارس الرئيسية، كانت المدارس كلها تعنى بتعليم الكتابة والقراءة والحساب والمبادىء الدينية بطريقة السؤال والجواب. وفي عين ورقة، ومار عبدا وروميه، وكفرحي وكفيفان جرى تعليم مختلف الموضوعات، من فن كتابة الخط إلى الأدب والمنطق والفلسفة واللاهوت واللغات الشرقية والأوروبية. على أن مجال العمل لم يكن فسيحاً أمام دارسي هذه الموضوعات إلا في سلك الكهنوت الذي أفاد من دراستهم العالية هذه. لذلك نجد أن معظم أحبار الكنيسة الذين لعبوا دوراً مهماً في حياة لبنان السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر هم من خريجي المدرسة المارونية في روما، أمثال البطريرك تيان، أو من عين ورقة.

التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث - إيليا حريق (ص ١٢٠ - ١٢١)

- مدرسة البطريركيّة، سنة ١٨٦٥.

- مدرسة «الثلاثة أقمار» للبنات، سنة ١٨٧٠.

- مدرسة الحكمة التي أسّسها مطران بيروت للموارنة يوسف الدّبس سنة ١٨٧٤.

ـ مدرسة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، سنة ١٨٨٠.

ـ «الكليّة الشرقيّة» في زحلة، سنة ١٨٩٨.

وقد درّست هذه المدارس، إلى جانب اللّغة العربيّة، اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة. وخرّجت عدداً كبيراً من المفكّرين والأدباء والشعراء، وغيرهم ممّن برعوا في مجالات الطب والهندسة والمحاماة وغيرها.

الجمعيّات

إلى جانب المدارس، تأسّس عدد من الجمعيّات التي اهتمّت بالأدب والعلوم، ومن أبرزها «جمعية الآداب والعلوم» سنة ١٨٤٧. وقد أُعيد تنظيمها بعد فترة واعترفت بها السلطات تحت تسمية «الجمعيّة العلميّة السوريّة» سنة ١٨٦٨. وكان من أبرز أعضائها المعلّم بطرس البستاني، حسين بيهم، ناصيف اليازجي، محمد أمين أرسلان وغيرهم. وأصدرت هذه الجمعيّة مجلّة شهريّة سُمّيت «مجموعة العلوم»، وقد اهتمّت بنشر المواضيع التي تتناول الأدب والعلوم المختلفة والشؤون الاقتصاديّة وغيرها.

وفي العام ١٨٥٠، أسّس الآباء اليسوعيّون «الجمعيّة الشرقيّة».

المكتبات

قبل فتح الجامعات في لبنان، لم تكن هناك فيه مكتبات؛ لأنه في غياب المطابع، لم تكن هناك كتب متوفرة سوى المخطوطات، وتلك كانت أسعارها مرتفعة ممّا أبعدها عن أن تكون في متناول الجميع. وكانت هذه المخطوطات محصورة في الأديرة والجوامع.

وعند افتتاح الجامعة الأميركيّة وجامعة القديس يوسف في بيروت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أقامت كلّ واحدة منهما مكتبة مهمّة لطلاّبها، ضمّت كتباً أجنبيّة ومخطوطات شرقيّة. ثم نشأت دار الكتب الوطنيّة.

وكانت المكتبات تحرص على ثروتها من الكتب وتحافظ عليها خوفاً من التّلف أو أيدي اللصوص. ويقول فيليب حتي في «تاريخ لبنان»: «ويبدو لك حرصهم على صيانتها من اللعنات التي يصبّونها على من تخوّله نفسه سرقتها. ولا يستنكفون أن يدوّنوا هذه اللعنات على الصفحة الأولى من الكتاب أو على جلدته من الداخل».

أمّا الكتب التي كان يمكن شراؤها من السوق، فقد كانت موجودة في عدد محدود جدّاً من المكتبات، وكانت مخطوطات يقتصر مضمونها على مواضيع دينيّة وتاريخيّة ولغويّة، بالإضافة إلى أقاصيص وأساطير عن بعض الشخصيّات التاريخيّة. وفي المقابل، لم تكن الكتب الأجنبيّة موجودة بأعداد مقبولة، وإذا وجدت ترجمات لها، فإنها لم تبلغ المستوى المطلوب من الدّقة والأمانة في النقل إلى اللغة العربيّة.

هذه الأمور كلّها بدأت تتغيّر منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث كثرت المطابع والمكتبات العامة ومحلاّت بيع الكتب. وأصبحت المعرفة أكثر توفّراً من ذي قبل.

جاء في الوصيّة التي تركها المطران جرمانوس فرحات، والتي وقف بموجبها كتبه على مكتبة مار الياس: «من أخذ كتاباً من هذه المكتبة ولم يرجعه، فليكن محروماً مسخوطاً عليه مرذولاً من الله ومن حقارتنا، وليكن مقطوعاً من جسد الكنيسة المارونيّة، ويكون بيته مثل صادوم وعامورة ويذهب رزقه وينهدم بيته ويشحذ أولاده من أبواب الخلائق....».

الترجمة

بعد اطّلاع العاملين في النطاق الفكري والثقافي على النتاج الغربي من الأدب والشعر بوجوههما المختلفة، عرفوا الفرق الشاسع الذي يبعد بين نتاج الفكر في الغرب الأوروبي والأميركي وبين العقم الذي كانت تعيش فيه مخيّلة الفكر الشرقي العربي وأحلامه وطموحاته. عرفوا أن المقارنة بين الاثنين كالمقارنة بين عملاق وقزم.

لقد كان الشرق العربي منغلقاً على ذاته، بعيداً عمّا تخطّه الأيادي البيضاء من أفكار ومشاعر إنسانيّة نبيلة، وذلك بسبب القيود التي فرضتها يد الاحتلال العثماني والظروف التي كان يعيشها الإنسان في لبنان ومحيطه ضمن إطارها والتي كانت تمنعه من الاتصال بالعلم ومعرفة ما يجري فيه.

ولمّا كان معظم الناس غير مهيّئين لاستيعاب اللغات الأجنبيّة، كالفرنسيّة والإنكليزيّة، وجد المهتمّون بهذا الموضوع ضرورة ترجمة الروائع العربيّة، من شعر ونثر إلى اللغة العربيّة ليستطيع الانسان العربي أن يطّلع على هذه الأعمال ويسبر أغوارها، ويحرّر بالتالي فكره ومخيّلته من القيود القاسية التي كانت تكبّلهما وتمنعهما من الانطلاق إلى ما تصبو إليه روحه من معرفة الحقّ والخير والجمال.

وقد نشأت على هذا الأساس حركة ترجمة واسعة في لبنان ومصر، وحتى في أوروبا وأميركا. وكان معظم العاملين في هذا المجال من اللبنانيّين. والمواضيع التي كانت تترجم إلى العربيّة شملت الأدب والشعر والقصّة والمسرح، وحتى بعض المواد التي كانت تدرّس في الجامعات كالهندسة والطب والعلوم.

وقد لعبت صحيفة «المقتطف» لصاحبيها يعقوب صرّوف وفارس نمر دوراً بارزاً في تعميم المواضيع المترجمة ذات الاتجاهات الأدبيّة والعلميّة المختلفة. وقامت مجلّة «الراوي» لصاحبها طانيوس عبدو بترجمة العديد من القصص.

ونقلت إلى العربيّة أعمال كثيرة للإنكليزي وليم شكسبير والفرنسي موليير. وبرز الأديب سليمان البستاني في تعريب «ألياذة» هوميروس وتعريف العالم العربي على فنّ المحلمة.

وأدخل مارون النقاش فنّ المسرح الذي تعرّف عليه في إيطاليا وفرنسا.

ولعبت الحركات والجمعيّات الفكريّة والثقافيّة في خارج لبنان دوراً مهمّاً في تشجيع الترجمة وتطبيقها فعلياً. وأبرز العاملين في هذا النطاق كانت «الرابطة القلميّة».

إن الإنجاز الذي حقّقته الترجمة في النهضة الفكريّة العربيّة، وخصوصاً

اللبنانيّة، تمثّل في تحرير الإنسان من الافكار والانماط والاساليب المتحجّرة البالية وجعله ينظر إلى الأدب والشعر كعاملين يعبّران عن المشاعر الإنسانيّة بمختلف تيّاراتها الوطنيّة والعاطفيّة والتأمليّة والوجدانيّة وغيرها. فخرج الأدب العربي من سجن التقليد، وبرز إلى العالم طفلاً سليماً وجميلاً، لكنه يحتاج إلى رعاية تامّة ومتواصلة لكي ينمو كما يجب ويخرج إلى العالم قويّاً جديداً، ويلعب دوره في المجال الإنساني كاملاً ومتساوياً مع أدوار الآخرين.

... نحن في دور من رقيّنا الأدبي والاجتماعي قد تنبّهت فيه حاجات روحيّة كثيرة لم نكن نشعر بها من قبل احتكاكنا الحديث بالغرب. وليس عندنا من الأقلام والأدمغة ما يفي بسدّ هذه الحاجات. فلنترجم! ولنجلّ مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشريّة العظمى، ولأنه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترها عنّا غوامض اللغة، يرفعنا من محيط صغير محدود، نتمرّغ في حمأته، إلى محيط نرى منه العالم الأوسع، فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وأفراحه وأحزانه.

فلنترجم.

ـ ميخائيل نعيمه ـ الغربال (ص ١٢٦)

الاستشراق

المستشرقون هم مفكّرون غربيّون درسوا اللغات الشرقيّة، وخصوصاً العربيّة، واهتمّوا بآداب الشرق ولغات دياناته وتقاليده... وقد نشط عمل المستشرقين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقاموا بأعمال متعدّدة ساهمت بفعاليّة في النهضة الفكريّة في لبنان والمناطق العربيّة. وكانوا في معظمهم من الأوروبيّين، وخصوصاً الألمان والفرنسيّين والإنكليز. وأبرزهم من الألمان: وستنفيلد، فيشر، وفون كريمر. ومن الفرنسيّين: كاترمايو ودي سلان ودي ساسي. ومن الإنكليز:

نيكلسون ولان وبالمر. وأهمّ ما قام به هؤلاء يمكن تلخيصه على الشكل التالي:

ـ جمع المخطوطات وتنظيمها في كتب مطبوعة، مبوّبة ومفهرسة.

ـ تنظيم العديد من الكتب والمخطوطات باللغة العربيّة في مكتبات.

ـ ترجمة العديد من الكتب العربيّة إلى لغات أجنبيّة مختلفة بهدف اطلاع الغرب على التراث الفكري والأدبي في الشرق العربي.

ـ وضع «دائرة المعارف الإسلاميّة» التي تضمّ في صفحاتها موضوعات إسلاميّة مختلفة، في الأدب والفلسفة والتاريخ والعلوم وغيرها.

المسرح

بدأ المسرح فعليّاً مع مارون النقاش، اللبناني الجنوبي، في أواسط القرن التاسع عشر، حين بدأ بتقديم عدد من المسرحيّات الغربيّة المترجمة إلى اللغة العربيّة ومسرحيّات أخرى من تأليفه.

في المرحلة الأولى، كان يقدّم هذه الأعمال في ساحة منزله، ثمّ انتقل في المرحلة التالية إلى مصر التي كانت تشهد تطوّراً في فن التمثيل والتي كانت تملك قدرات تخوّلها إقامة المسارح الكبيرة.

وقد أدّى ازدهار الحركة المسرحيّة إلى توجّه كتّاب من لبنان والعالم العربي إلى تأليف أعمال مسرحيّة من واقع الحياة الشرقيّة لكي تؤدّى على المسرح حيث الاتّصال المباشر والأفضل مع الجمهور، خصوصاً إذا كانت هذه المسرحيّات تطرح معاناة الإنسان العربي وهمومه ومشاكله.

الفصل الثالث

أبرز أعلام النهضة في لبنان والمهجر

قامت النهضة الفكريّة في الشرق العربي على أكتاف عدد قليل من الأدباء والشعراء والنقّاد في لبنان والعالم العربي. وكان للبنان في هذا المجال دور بارز أدّاه عدد من أبنائه في الداخل، وفي بعض الدول العربيّة، وفي المهجر. وكان المهجر الركن الأهمّ الذي نشط فيه اللبنانيّون حيث قدّموا الوجه الأفضل الذي أطلّت به النهضة الفكريّة في لبنان ومحيطه.

١ ـ في لبنان

عمل عدد من أصحاب الأقلام المحليّين من خلال تفاعلهم مع الحركة الثقافيّة التي عمّت معظم أرجاء لبنان، على تحريك الوضع الفكري في الداخل، وبثّ روح عصريّة جديدة، وقدّموا نتاجاً فكريّاً، في النثر والشعر والترجمة، كان له تأثيره في تحوّل مسار الأساليب الكتابيّة نحو التفاعل مع تطلّعات العصر ومواجهة مصاعبه والغرف من إنتاج الغرب الذي كان يعيش عصره الذّهبي. ومن أبرز روّاد النهضة الفكريّة ممّن عملوا في لبنان:

ـ المعلّم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣): ولد في الدبّية وتلقّى علومه في مدرسة عين ورقة. ثمّ درس اللّغتين اليونانيّة والعبريّة، وساعده ذلك في تعريب التوراة عن العبريّة والإنجيل المقدّس عن اليونانيّة، وفي العمل كترجمان في القنصليّة الأميركيّة في بيروت. أسّس «المدرسة الوطنيّة» في عبيه، وعمل في الصحافة، فأسّس «نفير سوريّة» سنة ١٨٦٠، ثم الصحيفة الأسبوعيّة «الجنّة» سنة ١٨٧٠، ثم مجلّة نصف شهريّة سمّاها «الجنان». وفي العام ١٨٧١ أصدر «الجنينة».

يعتبر البستاني من أبرز كتّاب عصره، علماً وإنتاجاً. فبالإضافة إلى المواضيع التي كان يكتبها لصحفه ومجلاّته، أصدر بعض المؤلّفات المهمّة، أبرزها «دائرة المعارف» ومعجم «محيط المحيط» في مجلّدين. وصدر قبله مصغّر عنه سمّاه «قطر

المحيط». أمّا «دائرة المعارف» التي أصدر منها ستة أجزاء في حياته، فقد وسّعها نجله سليم ونسيبه سليمان البستاني وأضافا عليها خمسة مجلّدات أخرى. وألّف البستاني عدداً من الكتب المدرسيّة في اللغة والرياضيّات وبدأ بترجمة «الموسوعة الإسلاميّة» إلى اللغة العربيّة. لكنه لم يتمكّن من إتمامها.

ـ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١): من كفرشيما. بدأ حياته العمليّة كاتباً في بلاط الأمير بشير الثاني الشهابي حتى نهاية عهده سنة ١٨٤٠. ثمّ انتقل إلى بيروت. جمع بين كتابة النثر والشعر، بالإضافة إلى تضلّعه في اللغة العربيّة. من آثاره الكتابيّة «فصل الخطاب في أصول لغة الإعراب» (١٨٣٦)، «مجمع البحرين» (١٨٥٦)، وبدأ بشرح ديوان أبي الطيّب المتنبّي، لكنه توفّي قبل إتمامه فأنجزه ابنه إبراهيم سنة ١٨٨٢ وصدر تحت عنوان «العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب». ولناصيف اليازجي أيضاً كتب مدرسيّة مختلفة في الأدب واللغة والقواعد.

ـ إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦): بدأ حياته معلّماً في «المدرسة البطريركيّة» في بيروت، ثمّ قام بتصحيح الترجمة العربيّة للتوراة بتكليف من الآباء اليسوعيّين. بعد ذلك، عمل في الصحافة ونشر أعمالاً رفيعة المستوى في الأدب واللغة.

ـ يوسف الأسير (١٨١٥ ـ ١٨٨٩): ولد في صيدا ودرس في الأزهر. شغل في بداية حياته مركز قاضٍ في طرابلس، ثمّ عُيّن في عكّا. وفي عهد المتصرّفية، عيّنه داود باشا نائباً عامّاً. درّس اللغة العربيّة في اسطنبول فالمدرسة البطريركيّة في بيروت، ثمّ في الكليّة السوريّة الإنجيليّة. عمل في الصحافة، فأصدر صحيفة «ثمرات الفنون» سنة ١٨٧٥.

ـ الأب لويس شيخو (١٨٥٩ ـ ١٩٢٨): تلقّى علومه في لبنان، ثمّ في أوروبا. وعاد بعد ذلك إلى بيروت حيث درّس اللغة العربيّة في جامعة القديس يوسف. عمل محرّراً في مجلّتي «المشرق» و«اليسوعيّة». والأخيرة كانت تُعنى بالأدب والعلوم والتاريخ وغيرها. كتب في الأدب والتاريخ عدداً وافراً من المؤلّفات. أبرزها «مجاني الأدب في حدائق العرب» و«بيروت، تاريخها وآثارها»

و«شعراء النصرانيّة قبل الإسلام» وغيرها.

ـ يعقوب صرّوف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧): وُلد في بلدة الحدث (بيروت) وتوفي في القاهرة. درس في «الكليّة السوريّة الإنجيليّة» (الجامعة الأميركيّة)، وأتقن اللغتين العربيّة والإنكليزيّة مع بعض الإلمام باليونانيّة والفرنسيّة. أبدى ميلاً إلى العلوم والفلسفة، وعندما أنهى دروسه، عمل أستاذاً في العلوم الطبيعيّة والكيميائيّة لفترة طويلة، ثم أسّس مجلّة «المقتطف» مع فارس نمر سنة ١٨٦٧ في بيروت، ونقلاها بعد فترة إلى مصر حيث أصدرا أيضاً صحيفة «المقطم». وقد اهتمّت «المقتطف» بنشر مواضيع فنّية وعلميّة. ويقول صرّوف ونمر عن الحوافز التي دفعتهما إلى إصدار «المقتطف»: «كنّا نأسف لأنّ لغتنا العربيّة خالية من جريدة تبسط فيها العلوم والفنون بسطاً يقرّبها من أفهام القرّاء، وتنشر فيها خلاصة المكتشفات الجديدة، والتحقيقات المفيدة، شهراً بعد شهر، حتى يبقى أبناء المشرق جارين مع العلم في سيره الحثيث. وكان أصدقاؤنا الذين يعرفون وسائطنا يحثّوننا على القيام بهذا العمل الخطير، لحسن اعتقادهم به ولشدّة الحاجة إليه».

ـ فارس نمر (١٨٥٤ ـ ١٩٥٢): ولد في حاصبيّا. تلقّى علومه في إحدى مدارس صيدا، ثمّ في «الكليّة السوريّة الإنجيليّة» حيث التقى صديقه يعقوب صرّوف الذي، كما ورد سابقاً، أسّس وإيّاه مجلّة «المقتطف» ثم جريدة «المقطم» في مصر. وقد أخذ على عاتقه في جلّ ما كتب في «المقطّم» محاربة الفساد الذي كان يعشّش في كلّ زاوية من زوايا الدولة العثمانيّة في ظلّ الحكم الاستبدادي للسلطان عبد الحميد الثاني، ممّا دفع العثمانيّين إلى الحكم عليه بالموت. لكنه عاش عمراً مديداً.

ـ سليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥): ولد في بكشتين (الشوف)، وتلقّى علومه في «المدرسة الوطنيّة» لبطرس البستاني، ثمّ أصبح معلّماً في المدرسة نفسها. عمل في الصحافة فشارك في تحرير «الجنان» و«الجنينة» لنسيبه البستاني، وعاونه أيضاً في تأليف «دائرة المعارف».

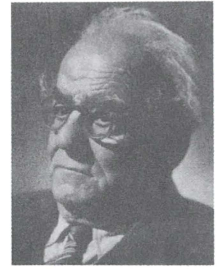
أتقن لغات عديدة، كالعربيّة والتركيّة والفرنسيّة واليونانيّة وغيرها، وألمّ ببعض اللغات الأخرى، كالألمانيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والروسيّة واللاتينيّة والعبريّة والسريانيّة وغيرها.

وإلى جانب إسهامه في «دائرة المعارف» التي أصدر منها ثلاثة مجلّدات، وضع ترجمة عربية لملحمة «الالياذة» للشاعر الإغريقي هوميروس، وكتاباً بعنوان «عبرة وذكرى».

ـ خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩): وُلد في بعلبك. درس في المدرسة البطريركيّة في زحلة، وتعلّم العربيّة وقواعد الشعر على الشيخ إبراهيم اليازجي. ثمّ بدأ ينظم الشعر موجّهاً اهتمامه نحو انتقاد مفاسد السلطان عبد الحميد وظلمه، وهذا ما أجبره على مغادرة لبنان إلى فرنسا، وكان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره. وهناك، واصل توجّهاته السياسيّة المعارضة للعثمانيين. ثمّ انتقل إلى مصر حيث عمل في صحيفتي «الأهرام» و«المؤيد»، وأصدر «المجلّة المصريّة»، و«الجوائب المصريّة».

وفي مجال الأدب قام بترجمة عدد من الأعمال المسرحيّة للكاتب البريطاني وليم شكسبير، أبرزها «هملت» و«عطيل» و«تاجر البندقيّة». وترجم أعمالاً مسرحيّة أخرى للفرنسي بيار كورني P. Corneille، منها «السيّد» و«سينّا».

وفي الشعر، ترك مطران ديواناً من أربعة أجزاء «ديوان الخليل»، يضمّ موضوعات تتراوح بين النمط التقليدي القديم، كالمدح والرثاء، وبين المواضيع التجديديّة التي تطرح مسائل وطنيّة وإنسانيّة واجتماعيّة ووجدانيّة. وقد خوّلته شهرته في نظم الشعر الحصول على لقب «شاعر القطرين» (مصر ولبنان)، وهو لقب انحصر به دون سواه.



ـ مارون عبّود (١٨٨٦ ـ ١٩٦٢): ولد في قرية عين كفاع (قضاء جبيل). بدأ دراسته في مدرسة القرية (تحت السنديانة حسب تسميته)، ثم التحق بمدرسة مار يوحنّا في البترون، ومنها إلى بيروت حيث تابع دروسه في مدرسة «الحكمة».

وكان أهله، وخصوصاً جدّه الكاهن، يأملون في

أن يصبح مارون كاهناً أيضاً، لكن طموحاته كانت مختلفة. فبعد إنهاء دراسته، راح يمارس الصحافة والتعليم، حيث تنقل بين عدد من المدارس إلى أن استقرّ في «الجامعة الوطنيّة» في عاليه، فدرّس اللغة والأدب العربيّين. وفي الوقت نفسه، كان ينشر مقالاته في الصحف والمجلاّت التي كانت تصدر في لبنان.

تميّز بأسلوب بسيط ساخر وناقد، وكان غزير الإنتاج. ففي آثاره التي تزيد عن الخمسين كتاباً، كان قاصّاً أحياناً، وفي أحيان أخرى، كان ناقداً اجتماعيّاً أو سياسيّاً أو أدبيّاً.

من مؤلّفاته: وجوه وحكايات، فارس آغا، صقر لبنان، أقزام وجبابرة، حبر على ورق، جدد وقدماء وغيرها. وله مؤلفات لم تنشر في حياته، منها «العجول المسمّنة» «والمخدّة».

ـ عمر فاخوري (١٨٩٥ ـ ١٩٤٦): وُلد في بيروت، ودرس في «الكليّة العثمانيّة». اشترك في حركات سياسيّة مناوئة للحكم العثماني، أبرزها جمعيّة «العربيّة الفتاة». وعندما تشكّلت الحكومة العربيّة برئاسة الأمير فيصل في دمشق، كُلّف بتحرير الجريدة الرسميّة التي راحت تصدرها الحكومة.

درس الحقوق بين بيروت وباريس، ثمّ عمل في حقل اختصاصه وفي الصحافة، وأصدر عدداً من المؤلّفات، أبرزها الباب المرصود، أديب في السوق، كيف ينهض العرب، الفصول الأربعة، وغيرها.

ـ يوسف السودا (١٨٨٩ ـ ١٩٦٨): ولد في بكفيّا، ودرس الحقوق في بيروت وباريس وبرع في حقل المحاماة. وتميّز بمواقفه النضاليّة المطالبة بالاستقلال. وأصدر جريدة «الراية» ثم عمل في المجال الدبلوماسي، وبعده الحقل السياسي فكان نائباً ووزيراً.

من أهمّ مؤلفاته: نظام لبنان السياسي، في سبيل لبنان، تاريخ لبنان الحضاري، بين القديم والحديث، فرنسا ولبنان، الأحرفيّة، وغيرها.

- الياس أبو شبكة (١٩٠٣ - ١٩٤٧): وُلد في بروفيدانس (الولايات المتحدة الأميركيّة) أثناء رحلة لوالديه اللذين انتقلا به إلى باريس، ثم إلى زوق مكايل، بلدته في قضاء كسروان. ربّته والدته وحيدة بعدما قُتل والده في السودان على أيدي بعض قطاع الطرق.

تلقّى علومه في مدرسة عينطورة ثمّ في مدرسة الأخوة المريميّين في جونيه فعينطورة مجدّداً. لكنه ترك المدرسة قبل أن يتمّ دروسه الثانويّة.



الياس أبو شبكة بريشة مصطفى فروخ

استهوته مطالعة الشعراء الفرنسيّين من مختلف المدارس الأدبيّة، ولا سيما أصحاب المذهب الرومنطيقي الذي كان له تأثير كبير على المنحى الذي سلكة في شعره الذي بدأت طلائعه منذ كان بعد في المدرسة.

عمل في التعليم والصحافة من دون أن ينقطع عن كتابة الشعر. وكانت له محاولات ناضجة في الرسم نشرت في صحيفة «المعرض» خلال العامين (١٩٣٠ و١٩٣١).

ورغم حياته القصيرة التي وضع سرطان الدم حدّاً لها، فقد ترك إنتاجاً غزيراً في الشعر والترجمة. وكانت له محاولات لا بأس بها في الأقصوصة، إلاً أنها لم تبلغ المستوى الذي ارتقاه شعره.

ففي مجال الشعر ترك أبو شبكة «القيثارة»، «أفاعي الفردوس»، «الألحان»

«نداء القلب»، «إلى الأبد»، و«غلواء».

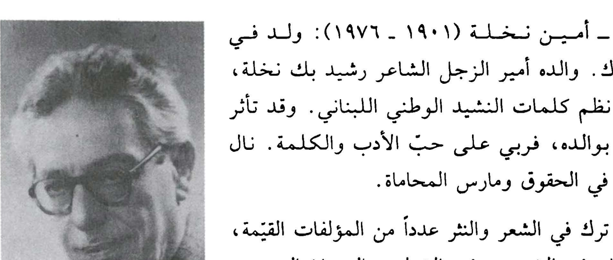
وفي الترجمة، ترك آثاراً عديدة، أبرزها: جوسلين، الطبيب رغماً عنه، مريض الوهم، البخيل، سقوط ملاك وغيرها. وكلّها أعمال مسرحيّة مترجمة عن الكاتب الفرنسي موليير Molière.

ومن مؤلفاته الأخرى: «المجتمع الأفضل»، «لبنان في العالم»، «تلك آثارنا»، وفي القصّة له «العمال الصالحون».

ـ بولس سلامة (١٩٠٢ ـ ١٩٧٩): وُلد في بلدة بتدّين اللقش (قضاء جزين). درس في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، حيث نال إجازة من معهد الحقوق فيها، ثم عمل محامياً فقاضياً؛ إلاّ أن المرض أقعده، فعانى منه طوال سبعة عشر عاماً خضع خلالها لأربع وعشرين عمليّة جراحيّة.

كتب في الشعر والنثر، وكان بارعاً في الإثنين معاً، حيث تميّز أسلوبه بالعذوبة والقوّة في آن واحد. ورغم مرضه، كان غزير الإنتاج، فنال سنة ١٩٦٩ جائزة رئيس الجمهوريّة شارل حلو التي منحت له لغزارة إنتاجه وجودته.

من آثاره الأدبيّة: عيد الغدير، مذكرات الجريح، حديث العشيّة، حكاية عمر، عيد الرياض، الصراع في الوجود، من شرفتي، الأمير بشير، تحت السنديانة، وغيرها.



ـ أمين نخلة (١٩٠١ ـ ١٩٧٦): ولد في الباروك. والده أمير الزجل الشاعر رشيد بك نخلة، الذي نظم كلمات النشيد الوطني اللبناني. وقد تأثر الابن بوالده، فربي على حبّ الأدب والكلمة. نال إجازة في الحقوق ومارس المحاماة.

ترك في الشعر والنثر عدداً من المؤلفات القيّمة، أبرزها، في الشعر: دفتر الغزل، والديوان الجديد. وفي النثر: المفكرة الريفيّة، تحت قناطر أرسطو،

كتاب الملوك، كتاب الدقائق في اللغة، كتاب المئة، وغيرها.

ـ أنيس فريحة: ولد سنة ١٩٠٢ في رأس المتن (قضاء بعبدا) وتلقّى علومه في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ثم في إحدى جامعات ألمانيا. وانتقل بعدها إلى الولايات المتحدة الأميركيّة حيث نال إجازة في العلوم الساميّة من جامعة شيكاغو.

ركّز اهتمامه في أبحاثه على حضارات المنطقة، وخصوصاً تلك التي نشأت في لبنان ومحيطه. وقد درّس هذه الأبحاث في عدد من جامعات لبنان وألمانيا والولايات المتحدة.

من أهمّ مؤلّفاته وأبحاثه: إسمع يا رضا، ملاحم وأساطير من أوغاريت، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الفكاهة عند العرب، سوانح، القرية اللبنانيّة حضارة في تاريخ الزوال، وغيرها.

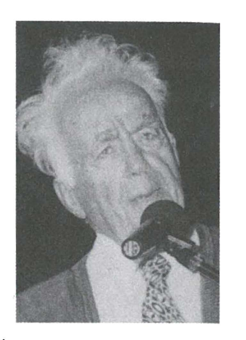
ـ فؤاد سليمان (١٩١٢ ـ ١٩٥١): وُلد في بلدة فيع، عمل في التعليم، ثم في الصحافة حيث رأس تحرير مجلّة «صوت المرأة»، ودوّن مقالاته في الأدب والسياسة والاجتماع ونشرها تحت اسم مستعار «تمّوز»، وقد تميّزت بالجرأة.

لكن عمره القصير لم يتح له الإنتاج الغزير، لكنه ترك أعمالاً بارزة، أهمّها: «درب القمر»، و«القناديل الحمراء»، و«تمّوزيّات»، و«أغاني تموز».

ـ توفيق يوسف عواد (١٩١١ ـ ١٩٨٩): ولد في بحرصاف، أظهر ميلاً إلى الأدب منذ حداثته. عمل في السلك الدبلوماسي، فمثّل لبنان سفيراً في عدد من عواصم العالم، وكان في الوقت نفسه، يمارس الكتابة، مركّزاً على القصة النابعة من صميم الواقع اللبناني.

من أهمّ مؤلفاته: الرغيف، الصبيّ الأعرج، قميص الصوف، السائح، والترجمان، غبار الأيّام، العذارى، قوافل الزمان، وغيرها.

سقط سنة ١٩٨٩ شهيداً في الحرب التي شهدها لبنان، بعدما سقطت قذيفة مدفعيّة على ملجأ السفارة الإسبانيّة في بعبدا حيث كان ملتجئاً من القصف.



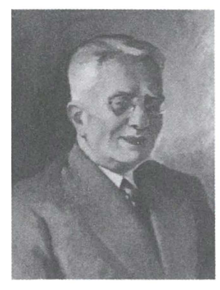
ـ سعيد عقل: من أدباء لبنان الكبار في الشعر والنثر. ولد سنة ١٩١٢ في زحلة، أبدى ميلاً إلى الأدب منذ حداثة سنّه. وبعد إنهاء دراسته، مارس التعليم والصحافة فتنقّل بين المدارس والجامعات والصحف، ملقياً محاضرات عديدة وناشراً مواضيع أدبيّة بين شعر ونثر.

يتميّز أدبه بعاطفة رقيقة خصّصها للوطن والمرأة في شكل عام. وساهمت مطالعته لأهمّ الآثار الأدبيّة العالميّة في تعميق نظرته الأدبيّة ونزعته الإنسانيّة والرمزيّة في الكتابة.

أبرز مؤلفاته في الشعر: بنت يفتاح، المجدليّة، رندلى، أجمل منك؟ لا، أجراس الياسمين، دلزى، وقدموس. وفي النثر: لبنان إن حكى، كأس الخمر، وكتاب الورد، وله بالعاميّة «يارا».

وقد غُنّي العديد من قصائده، وخصوصاً بصوت فيروز وألحان الأخوين رحباني.

ـ بشارة الخوري (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨): وُلد في بيروت، وفيها تلقّى علومه. أسّس صحيفة «البرق» في بيروت سنة ١٩٠٨، واستمرّت في العمل حتى العام ١٩٣١، عندما أصدر الإنتداب الفرنسي قراراً بوقفها عن العمل، لما كانت تنشره من مقالات مناهضة للسلطات الفرنسيّة الحاكمة. شارك كعضو في «المجمع العلمي العربي» في دمشق.



تلقّب بـ «الأخطل الصغير» وبويع بإمارة الشعر العربي بعد وفاة أمير الشعر السابق أحمد شوقي سنة ١٩٣٢.

ترك أثرين في الشعر، هما: «الهوى والشباب» و«شعر الأخطل الصغير».

تميّز أسلوبه بالرّقة والعذوبة، لا سيّما في أشعاره الغزليّة والوطنيّة، ممّا دفع بالعديد من الملحّنين المصريين واللبنانين، لا سيّما محمد عبد الوهاب

والأخوين رحباني، إلى تلحين العديد من قصائده التي غناها عبد الوهاب نفسه وفيروز وغيرهما.

ـ صلاح لبكي (١٩٠٦ ـ ١٩٥٥): ولد في بعبدات. والده الصحافي والسياسي نعوم لبكي. تلقّى علومه في لبنان، ورئس «جمعيّة أهل القلم». آثاره الكتابيّة هي: «أرجوحة القمر»، «مواعيد»، «سأم»، «لبنان الشاعر»، و«من أعماق الجبل».

٢ ـ في خارج لبنان: تركّز نشاط الحركة الفكريّة للأدباء اللبنانيين المهجريّين في كلّ من الولايات المتحدة والبرازيل وفي مصر.

والحركة الأبرز تركّزت في الولايات المتحدة الأميركيّة، حيث اجتمع عدد من الكتّاب الذين ساقتهم أقدار وظروف مختلفة إلى العالم الجديد، بهدف تحصيل الرزق والعلم. وأتيح لهم هناك أن يطالعوا ويطّلعوا على كنوز الأدب الغربي الراقي، والتي لا مجال لمقارنتها بتلك المركّبات اللفظيّة والإنشائيّة التي كان العالم العربي غارقاً فيها وهو يتبجّح. فكانت المقالات المدبّجة والقصائد المنمّقة الخالية من أي عاطفة إنسانيّة نبيلة تطلّ في كلّ يوم، من هنا وهناك، مستهدفة الكسب المادّي الرخيص، ولا شيء أفضل من ذلك! فقصائد المدح والهجاء والرثاء والنواح كانت تصمّ آذان الانسان العربي، في كلّ ساعة تكون فيها مناسبة فرح أو ترح.

تلك الحالة المزرية كانت موضع انتقاد بنّاء تولاّه بعض أقلام الأدباء المهجريّين، لا سيّما جبران والريحاني ونعيمة الذي كان التزم النقد الأدبي في تلك المرحلة في بدايات القرن العشرين.

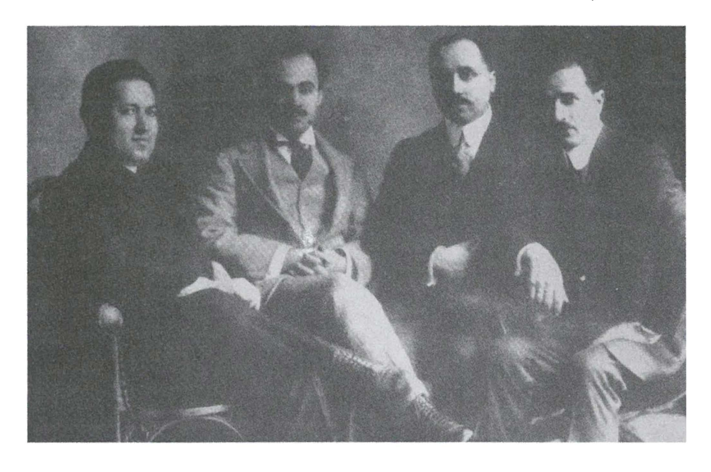
وفي هذا المجال، يقول نعيمة في مقاله بعنوان «الحباحب» (الغربال ص ٤٥ ـ ٤٧ ـ ٥١): «ليست المصيبة أن لا كتّاب عندنا، بل المصيبة أن عندنا زمرة ـ والأصح جيشاً ـ من حملة الأقلام ومسوّدي الأوراق ندعوهم كتّاباً ونقنع بما «يطربوننا» به كلّ يوم من التهاني والمراثي، والغزل، ظانين أن هذا هو جلّ ما وجدت الأقلام لأجله، وأن هذا هو محيط الدائرة التي يقدر الكتاب أن يجول ضمنها مهما كانت مواهبه... أيّ فكر جديد أودعه العقل العربيّ منذ خمسمائة

سنة في خزانة الآداب العموميّة فتداولته الألسن، وسهرت فوقه العقول؟... كم من الشباب الذين عندما يرون قصائدهم مدرجة في الجرائد ومشفوعة بنعوت من قلم محرّر الجريدة «قصيدة عامرة الأبيات من نظم الشاعر العصري المتفنّن فلان» يسكرون بخمرة الشهرة ويصبحون وهم يحلمون بمجد هوميروس وشكسبير وهينة إلخ، وهم ليسوا بين الشعراء إلاّ من الطبقة الرابعة التي قيل فيها: «وشاعر من حقّه أن تصفعه». أليس هذا الشعرور قرحاً مخيفاً في جسم الأمة التي تطلب سمكة فيعطونها حيّة؟».

وفي ما يلي لمحة عن أركان النهضة الأدبيّة اللبنانيّين في المهجر:

أوّلاً: في الولايات المتحدة.

● الرابطة القلميّة (١٩٢٠ ـ ١٩٣١): تأسّست في الولايات المتحدة في ٢٠ نيسان ١٩٢٠ بفضل عصبة من الأدباء والشعراء اللبنانيّين، والسوريّين من الذين ربطت بينهم «ألفة أدبيّة وفنيّة وروحيّة» حسب تعبير مستشار الرابطة ميخائيل نعيمة.



«عمال» من الرابطة القلمية، من اليمين: نعيمه، عبد المسيح حداد، جبران، نسيب عريضه

وقد ضمّت الرابطة عشرة أعضاء، هم إلى جانب نعيمة: جبران خليل جبران الذي انتخب عميداً للرابطة، إيليا أبو ماضي، رشيد أيّوب، ندرة حداد، وديع باحوط، الياس عطاالله، عبد المسيح حداد، نسيب عريضة، ووليم كاتسفليس الذي كان أميناً للصندوق، أو الخازن.

وقد لخّص نعيمة الأهداف التي من أجلها نشأت الرابطة بما يلي[١]:

ـ بثّ روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوّة فعّالة في حياة الأمّة.

ـ نشر مؤلفات عمال الرابطة ومؤلفات سواهم من كتّاب العربيّة المستحقين، وترجمة المؤلّفات المهمّة من الآداب الأجنبيّة.

ـ منح جوائز ماليّة في الشعر والنثر والترجمة تشجيعاً للأدباء.

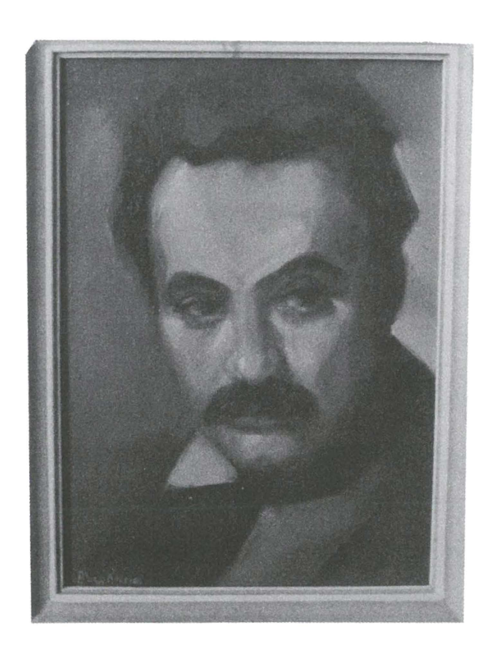
وأخذ كتّاب الرابطة ينشرون أعمالهم النثريّة والشعريّة في مجلّة «السائح» التي كان يملكها عبد المسيح حدّاد، أحد أعضاء الرابطة.

وقد واجهت الرابطة حملات شنّها «أنصار التقليد والجمود»[٢]، لكن ذلك كان يزيد أعضاءها تصميماً على إتمام واجبهم تجاة الأدب المشرقي، وخصوصاً العربي، لإيقاظه من سباته العميق. إلاّ أن عمرها لن يكون طويلاً، لأن وفاة جبران، عميدها، في ١٠ نيسان ١٩٣١، وبعض أعضائها الآخرين، وعودة نعيمة إلى لبنان سنة ١٩٣٢، وضعت حدّاً للرابطة كتجمّع. أمّا آثار أدبائها فقد بقيت لتشكّل الأساس الصلب الذي قامت عليه ونهلت منه الحركة الفكريّة في لبنان وجواره.

---

(١) ـ ميخائيل نعيمة ـ جبران خليل جبران، (صفحة ١٧٦).
(٢) ـ المصدر نفسه، (صفحة ١٧٨).

أضواء على أبرز أعضاء الرابطة من اللبنانيّين



ـ جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١): وُلد في بشرّي من أب مدمن على الكحول وأمّ عاقلة، ذات إرادة صلبة. فوضعت نصب عينيها تأمين مستقبل أولادها الأربعة رغم الفقر الذي كان يضغط بمخالبه على الجميع. ولم يكد جبران يبلغ الحادية عشرة من العمر، حتى حملته والدته مع أخوته وهاجرت إلى الولايات المتحدة الأميركيّة واستقرّت في أحد أحياء بوسطن. وأدخل جبران إلى إحدى المدارس.

وبعد سنوات قليلة، عاد جبران إلى لبنان ليتعلّم اللغة العربيّة، فالتحق بمدرسة الحكمة وبقي فيها أربع سنوات أتقن خلالها العربيّة والفرنسيّة.

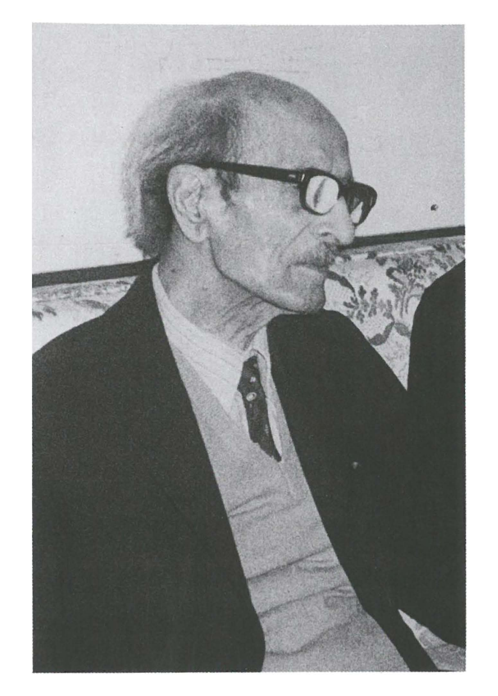
ثم عاد إلى بوسطن حيث واجهته الحياة بموت أفراد عائلته، الواحد تلو الآخر، بسبب المرض. فماتت أخته سلطانة ثم أخوه بطرس، فوالدته كاملة. ولم يبق له سوى شقيقته ماريانا.

انتقل إلى باريس حيث تلّقى دروساً في الرسم لصقل موهبته التي اهتمّت

برعايتها آنسة أميركيّة تُدعى ماري هاسكل. وبقي في فرنسا سنتين أُغرم خلالها بفتاة تُدعى ميشلين، وكان حبّاً يائساً.

بعد ذلك، عاد إلى أميركا واستقرّ في نيويورك حيث أنشأ محترفاً للرسم، وراح يرسم ويكتب وينشر، وهناك تعرّف إلى ميخائيل نعيمة وعدد من الكتّاب والشعراء وأنشأ معهم «الرابطة القلميّة»، واستمرّ في عطاء القلم والرّيشة حتى أنهكه المرض (السلّ وسرطان الكبد) فصرعه في ١٠ نيسان ١٩٣١ في أحد مستشفيات نيويورك.

تميّز جبران بشخصيّة ثوريّة ناقمة على الظلم وعلى الطبقيّة في المجتمع. وفي الوقت نفسه، كان رومنطيقيّاً في شعره ورمزيّاً في لوحاته التي جعل الإنسان عنوانها.



من أبرز آثاره: ـ في العربيّة: عرائس المروج، الأرواح المتمرّدة، الأجنحة المتكسّرة، دمعة وابتسامة، المواكب، العواصف، والبدائع والطرائف.

ـ في الإنكليزيّة: السابق، المجنون، رمل وزبد، يسوع ابن الإنسان، والنبي.

ـ ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ ـ ١٩٨٨): وُلد في بسكنتا، وتلقّى علومه الأولى فيها، ثم في الناصرة في فلسطين. بعد ذلك، تابع علومه في روسيّا التي أتقن لغة شعبها، وفيها بدأ أولى

محاولاته الشعريّة (النهر المتجمّد).

عاد إلى لبنان، ومنه سافر إلى الولايات المتحدة حيث نال إجازتين في الآداب والحقوق. وأثناء الحرب العالمية الثانية، طاله التجنيد الإجباري، فأرسل مع قوات الجيش الأميركي إلى فرنسا لمقاتلة ألمانيا، وعاد منها سالماً إلى الولايات المتحدة.

عمل فترة في المحاسبة لتأمين لقمة عيشه، وواظب على الكتابة والتأليف، مركّزاً على النقد الأدبي. وكان أوّل مقال نقدي كتبه بعنوان «فجر الأمل بعد ليل اليأس» تناول فيه رواية جبران «الأجنحة المتكسرة». وكان لهذا المقال الفضل في لقاء جبران ونعيمة الأوّل. وترافقا على طريق الحياة والأدب وفي «الرابطة القلميّة» حتى وفاة جبران سنة ١٩٣١. فعاد نعيمة إلى لبنان بعد ذلك بسنة، واستقرّ في بلدته بسكنتا شتاء، وفي جوارها الشخروب صيفاً، حيث انصرف إلى الكتابة والتأليف. وقد جعلت عزلته هذه الأديب اللبناني الراحل توفيق يوسف عوّاد يلقّبه بـ «ناسك الشخروب».

وأمضى نعيمة معظم حياته التي قاربت المئة عام في لبنان حتى وفاته في شباط ١٩٨٨، تاركاً عدداً كبيراً من المؤلفات القيّمة التي ترجم بعضها إلى عدد من اللغات العالميّة.

من أبرز مؤلّفاته: ـ في العربيّة: الآباء والبنون، الغربال، المراحل، زاد المعاد، كان ما كان، همس الجفون (شعر)، صوت العالم، في مهب الريح، سبعون، اليوم الأخير، يا ابن آدم، من وحي المسيح وغيرها.

ـ في الإنكليزيّة: كتاب مرداد، جبران خليل جبران، مذكّرات الأرقش وغيرها. وجميع هذه الكتب ترجمها نعيمة إلى اللغة العربيّة.

كتب نعيمة في القصة والشعر والنقد الأدبي الاجتماعي والفلسفة والوجدانيّات. وبلغ قمّة عطائه في «كتاب مرداد» الذي يُعتبر الكتاب الأهم الذي أصدره. وقد جعل الإنسان همّه الأوّل في معظم ما كتب.

ـ إيليّا أبو ماضي (١٨٩٠ ـ ١٩٥٧): وُلد في بلدة المحيدثة، قرب بكفيّا، وسافر إلى مصر في الحادية عشرة من عمره، حيث راح يعمل نهاراً في متجر عمّه ويدرس ليلاً، وقد أحبّ الشعر منذ صغره، وأخذ ينظمه وينشر قصائده في مجلّة «الزهور». وفي العام ١٩١٢، صدر له ديوانه الأوّل بعنوان «تذكار الماضي».

بعد ذلك، هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، وراح يعمل في مجال التجارة، ثم أصبح عضواً في «الرابطة القلميّة»، ولقّب بشاعرها.

وفي العام ١٩٢٩، أسّس مجلّة «السمير»، التي ظلّت تصدر حتى وفاته. وقد تناول في هذه المجلّة، التي صارت تصدر يوميّاً بعد فترة من تأسيها، مختلف المواضيع، وخصوصاً القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة.

بالإضافة إلى «تذكار الماضي»، ترك أبو ماضي أربعة دواوين، هي «ديوان أبو ماضي»، و«الجداول»، «الخمائل»، و«تبر وتراب». والديوان الأخير نشر بعد وفاته.

ـ رشيد أيوب (١٨٧١ ـ ١٩٤١): وُلد في بسكنتا. سافر إلى الولايات المتحدة قبل أن يتلقّى ثقافة واسعة. لكنه أبدى ميلاً إلى نظم الشعر، وبدأ ينشر قصائده في بعض المجلات العربيّة التي كانت تصدر في أميركا. انضمّ إلى «الرابطة القلميّة». من أبرز آثاره ديوان شعري بعنوان «أغاني الدوريش».

* * *

وقد تعرّضت الرابطة» لحملات تجريح ونقد من التقليديّين والمتمسّكين بقواعد اللغة وقوانين الخليل وعروضه وأوزانه. لكن ذلك لم يزدها إلاّ قوّة، فراح نهجها التجديدي ينتشر ليحطّم القيود التي كانت تكبّل الأدب العربي وينطلق به إلى عالم الإنسان والحق والجمال. ولم يتوانَ أركانها عن الدفاع عن خطّهم الأدبي، فكانوا يردّون على من وصف نعيمة ضجيج احتجاجاتهم بـ «نقيق الضفادع».

فجبران يقول في كتابه «دمعة وابتسامة»، وتحت عنوان «شعراء المهجر»:

«لو تخيل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير

مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال.

«ولو تنبّأ المتنبي وافترض الفارض أن ما كتبناه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطّما الأقلام بأيدي الاهمال.

«ولو درت أرواح هوميروس وفرجيل وأعمى المعرّة وملتون أن الشعر المتجسّم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله في منازل الأغنياء لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات.

«ما أنا من المتعنّتين، لكن يعزّ عليّ أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة الأغبياء، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدّعين، ولست منفرداً في وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثلاً بالجاموس.

«الشعر يا قوم روح مقدّسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها. أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوقى...».

وعن الدور الذي لعبته «الرابطة القلميّة»، يقول ميخائيل نعيمة في كتابه «في الغربال الجديد»: «لقد كان من ثورة «الرابطة القلميّة» على التقليد أن خلقت أدباً إنسانيّاً شاملاً، وخلقت شعراً لا أثر فيه للفخر والحماسة والهجاء، والتّسكع في المدح، والتفجّع الكاذب في الرثاء. أما الغزل فقد أقلعت فيه عن أساليب القدامى. وأمّا القوالب الشعريّة فقد زاوجت فيها ما بين البحور الكاملة ومجازيئها، والبحور التي تدانيها في جرسها، ونوّعت القوافي فقسمت القصيدة الواحدة إلى مقاطع، جاعلة لكلّ مقطع قافية غير التي للذي قبله أو بعده. ومن ثمّ ربطت القصيدة من أوّلها إلى آخرها بفكرة واحدة أو قصد واحد بحيث لا تبدو مفككة الأوصال، عديمة الانسجام. ذلك مع الافتنان في تبديل الصور وتلوينها، وفي تزاوج الأنغام وتنويعها...».

* * *

من الأدباء المهجريّين الذين لم ينتموا إلى «الرابطة القلميّة» أمين الريحاني أو «فيلسوف الفريكة» كما لقّب. وعدم انضمامه إلى «الرابطة» يعزوه نعيمة في كتابه «سبعون» ـ الجزء الثاني، إلى الخلاف الحادّ الذي ساد بين الريحاني وجبران، عميد «الرابطة».

ـ أمين الريحاني (١٧٨٦ ـ ١٩٤٠): ولد في قرية الفريكة. سافر إلى الولايات المتحدة مع عمه سنة ١٨٨٧ حيث التحق ببعض المدارس. لكن مهنة التجارة استهوته، وكان والده وعمه يمارسانها. فترك المدرسة وراح يعمل في التجارة. لكنه في الوقت نفسه، لم يهمل القراءة، فأخذ يطالع كتباً عربيّة مختلفة تتناول الأدب والتاريخ. وقرأ مؤلّفات على النحو ذاته باللغة الإنكليزيّة.

بعد ذلك، عاد مجدّداً إلى الدراسة حيث التحق بإحدى كليات الحقوق في نيويورك. ثم عاد فترة إلى لبنان حيث ترجم «لزوميّات» أبي العلاء المعرّي إلى الإنكليزيّة ونشرها في أميركا تحت عنوان «رباعيات المعرّي».

وأثناء وجوده في أميركا، استهواه السفر، فزار عدداً من البلدان الأوروبيّة والأفريقيّة واطّلع على عادات شعوبها وتقاليدها. وقد ساعدته أسفاره العديدة في معرفة معنى الحرية والاستقلال، فأدرك الواقع الأليم الذي كانت تعيشه بلاده والعالم العربي في ظلّ الاحتلال العثماني، والظلم الذي كان يمارسه هذا الاحتلال في حقّ شعوب تلك المنطقة.

وما كادت الحرب العالميّة الأولى تنتهي، حتى أدرك الريحاني أن ما كان يُعدّ لبلده ولمحيطه العربي كان أبعد ما يكون عن الاستقلال. فقرّر القيام بعمل ما يدفع زعماء العالم العربي إلى الاقتناع بأن جمع الصفوف وتوحيد الكلمة هما الطريق الوحيدة لبلوغ الهدف المنشود في تحقيق الاستقلال.

وعلى هذا الأمل، بدأ سنة ١٩٢٢ رحلة طاف خلالها على معظم المناطق والبلاد العربيّة، ومنها مصر، والحجاز، واليمن، والكويت، والعراق. واتّصل بعدد من الزعماء العرب. ثمّ استقرّ لفترة في لبنان، قبل أن يعود إلى التنقل بينه وبين أميركا. وعندما اعتلّت صحّته، عاد إلى لبنان، ومكث فيه حتى وفاته بعدما سقط

عن دراجته بسبب معاناته مرض الروماتيزم.

من أهمّ مؤلفاته: ـ بالعربيّة: ملوك العرب، قلب العراق، قلب لبنان، زنبقة الغور، الريحانيّات، التطرّف والإصلاح، هتاف الأودية (شعر منثور) وغيرها.

ـ بالإنكليزيّة: لزوميّات المعرّي، ابن سعود ونجد.

ثانياً: في البرازيل.

ـ فوزي المعلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠): وُلد في زحلة، ودرس على مقاعد «الكليّة الشرقيّة» وبدأ يظهر ميلاً إلى الشعر منذ فتوّته، وساعدته مكتبة والده، عيسى اسكندر المعلوف، الغنيّة على مطالعة أهمّ المؤلفات.

بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، توجّه إلى الشام وراح يعمل في دار المعلّمين وفي المعهد الطبّي العربي. وفي الوقت نفسه، كان يكتب وينشر ما يكتبه أو ينظمه في الصحف والمجلاّت.

ثمّ سافر إلى البرازيل، حيث عمل مع شقيقه وأخواله في إدارة مصانع الحرير، وأسّس «النادي الزحلي» في ساو باولو. وحقّق نجاحاً في العمل والشعر. إلا أن مرضاً أصابه وأودى به، وهو في مطلع العقد الرابع من العمر.

من أهمّ مؤلفاته ديوان شعر بعنوان «بساط الريح».

ـ شفيق المعلوف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦): وُلد في زحلة، وهو شقيق فوزي ورياض المعلوف. استفاد هو أيضاً من مكتبة والده، فوجّه اهتماماته نحو المجال الأدبي. رأس تحرير مجلّة «ألف باء» في لبنان. ثم هاجر إلى البرازيل مع أخواله وشقيقه فوزي. وعمل في التجارة والصناعة. لكنه لم يهمل الأدب، فشارك في تأسيس «العصبة الأندلسيّة» التي كانت على غرار «الرابطة القلميّة» وترأسها.

من أهمّ مؤلفاته: ملحمة «عبقر» التي ترجمت إلى لغات عديدة، «لكلّ زهرة عبير» «نداء المجاذيف»، و«رواية ليلى الأخيليّة»، و«سنابل راعوث».

ثالثاً: في مصر.

ـ مي زيادة (١٨٩٥ ـ ١٩٤١): وُلدت في الناصرة (فلسطين). تميّزت منذ

صغرها بمسحة من الحزن والكآبة. تلقّت علومها في لبنان، ثم عادت إلى الناصرة. ومن هناك انتقلت إلى مصر حيث استهواها الأدب بمنحاه الرومنطيقي بسبب عشقها للطبيعة. وأتاح لها حبّها للمطالعة الاطّلاع على أبرز الآثار الأدبيّة، العربيّة والغربيّة، كونها تتقن عدداً من اللغات.

مارست التعليم والصحافة. وساهمت في نهضة المرأة العربيّة وسعت دائماً إلى تحريرها من عبوديّة الرجل والمجتمع والتقاليد.

تبادلت رسائل عديدة مع جبران خليل جبران، كان محورها الأوضاع الاجتماعيّة في المجتمعات العربيّة والنهضة العربيّة في بداية القرن العشرين.

من أهمّ مؤلّفاتها: باحثة البادية، سوانح فتاة، المساواة، وكلمات وإشارات.

ـ جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤): وُلد في بيروت، وفيها تلقّى علومه. سافر إلى القاهرة حيث أسّس مجلّة «الهلال» سنة ١٨٩٢، ثم «دار الهلال للطباعة والنشر». كتب في الأدب والتاريخ، وترك عدداً كبيراً من المؤلفات، أهمّها: «تاريخ آداب اللغة العربيّة»، «تاريخ التمدّن الإسلامي»، «تراجم مشاهير الشرق»، «العرب قبل الإسلام» «فتاة غسان»، «عذراء قريش» و«غادة كربلاء».

نماذج نثريّة وشعريّة
من أدب النهضة

مَاتَ أَهْلي
كتبت أيام المجاعة

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي.

مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم.

مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي، وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان أهلي وأحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس.

مات أهلي جائعين، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحدّ السيف، وأنا في هذه البلاد القصيّة أسير بين قوم فرحين مغتبطين يتناولون المآكل الشهيّة والمشارب الطيّبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيّام والأيّام تضحك لهم.

مات أهلي أذلّ ميتة، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام. وهذه هي المأساة المستتبّة على مسرح نفسي.

لو كانت جائعاً بين أهلي الجائعين مضطهداً بين قومي المضطهدين، لكانت الأيّام أخفّ وطأة على صدري، والليالي أقلّ سواداً أمام عينيّ، لأن من يشارك أهله بالأسى والشدّة يشعر بتلك التعزية العلويّة التي يولدها الاستشهاد، بل يفتخر بنفسه لأنّه يموت بريئاً مع الأبرياء.

لكني لست مع قومي الجائعين، المضطهدين، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظلّ الطمأنينة

وخمول السلامة. أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفخر بشيء حتى ولا بدموعي.

وماذا عسى يقدر المنفيُّ البعيد أن يفعل لأهله الجائعين؟

ليت شعري، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه؟

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحبّاتي الموت عن نفسه.

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً.

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظلّ القبر عن جسده.

ولكن، واحرّ قلباه، لست بسنبلة من القمح في سهل سوريا، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان، وهذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً أمام نفسي وأمام أشباح الليل.

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبّل يديّ ثم توقفني بلا عزم، ولا إرادة، ولا عمل.

يقولون لي: ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم، وما الدموع والدماء التي أُهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفّق ليلاً ونهاراً في أودية الأرض وسهولها.

نعم، ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء ـ نكبة بلادي جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعي والثّعابين ـ نكبة بلادي مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد.

لو ثار قومي على حكّامهم الطغاة وماتوا جميعهم متمرّدين لقلت إن الموت في سبيل الحريّة لأشرف من الحياة في ضلال الاستسلام. ومن يعتنق الأبديّة

والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق.

لو اشتركت أمّتي بحرب الأمم وانقرضت على بكرة أبيها في ساحة القتال لقلت: هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء واليابسة معاً، وإن الموت تحت أغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعي الشيخوخة.

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً وغمر التراب أهلي وأحبائي لقلت: هي النواميس الخفيّة تتحرك بمشيئة قوّة فوق قوى البشر، فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها.

ولكن لم يمت أهلي متمرّدين، ولا هلكوا محاربين، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين.

مات أهلي على الصليب.

ماتوا وأكفّهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة إلى سواد الفضاء.

ماتوا صامتين لأن آذان البشريّة قد أُغلقت دون صراخهم.

ماتوا لأنّهم لم يحبّوا أعداءهم كالجبناء، ولم يكرهوا محبّيهم كالجاحدين.

ماتوا لأنّهم لم يظلموا الظالمين.

ماتوا لأنّهم كانوا مسالمين.

ماتوا جوعاً في الأرض التي تدرّ لبناً وعسلاً.

ماتوا لأنّ الثعبان قد التهم كلّ ما في حقولهم من المواشي وما في أهرائهم من الأقوات.

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين.

مات أهلي وأهلكم أيها السّوريون، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت

منهم؟

إن نواحنا لا يسدّ رمقهم، ودموعنا لا تروي غليلهم، إذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدّة؟

هل نبقى مرتابين متردّدين، متكاسلين، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها؟

إن العاطفة التي تجعلك، يا أخي السوري، تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد يفقد حياته هي هي الأمر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء اللّيل.

وإن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة إليك هو هو الحلقة الذهبيّة التي تصل ما فيك من البشريّة بما فوق البشريّة.

جبران ـ العواصف

من قصيدة «بالأمسِ»

كـانَ لـي بـالأمـسِ قَـلـبٌ فَـقَـضَـى ... وأراحَ الـنّـاسَ مـنـهُ واسـتـراحْ
ذاكَ عَـهـدٌ مـن حَـيـاتِـي قـد مـضَـى ... بـيـنَ تَـشـبـيـبٍ وشـكـوَى ونـواحْ
إنّـمـا الـحبّ كـنَـجـمٍ فـي الـفَـضـا ... نُـورُهُ يُـمـحَـى بـأنـوارِ الـصّـبـاحْ
وسـرورُ الـحـبّ وهـمٌ لا يَـطـولْ ... وجـمـالُ الـحـبّ ظـلٌّ لا يـقـيـمْ
وعـهـودُ الـحـبّ أحـلامٌ تَـزُولُ ... عـنـدَما يَستَيـقـظُ الـعقـلُ السّـليـمْ

*

كـم سـهِـرْتُ الـلّـيـل والـشّـوْق معـي ... سـاهـر أرقُـبـهُ كَـي لا أنـامْ
وخـيَـالُ الـوَجـدِ يـحـمـي مَـضْـجَـعـي ... قـائـلاً: «لا تـدنُ! فـالـنـوم حـرامْ»
وسـقـامـي هـامِـسٌ فـي مَـسـمـعـي: ... «من يريد الوَصل لا يشكو السقامْ»
تـلـك أيّـامٌ تَـقَـضّـتْ، فـابـشـري ... يـا عـيُـونـي، بـلـقـا طـيـفِ الـكَـرَى
واحـذري، يـا نـفـس، ألاّ تـذكـري ... ذلـكَ الـعَـهـد ومـا فـيـهِ جـرَى

*

كـنـتُ إنْ هَـبّتْ نُـسَـيْـمَـات الـسّـحَـرْ ... أتـلـوّى راقـصـاً مِـنْ مـرحـي
وإذا مـا سـكَـبَ الـغـيـمُ الـمَـطَـرْ ... خـلـتُـهُ الـرّاحَ فـأمـلا قـدَحـي
وإذا الـبَـذْرُ عـلـى الأفـقِ ظَـهَـرْ ... وهي قربي صحتُ: «هلاّ يستحي»
كـلّ هـذا كـانَ بـالأمـسِ، ومـا ... كـان بـالأمـسِ تَـوَلّـى كـالـضّـبـابْ
ومَـحـا الـسّـلـوانُ مـاضـيّ كـمَـا ... تـفـرطُ الأنـفـاسُ عـقـداً مـن حـبـابْ

أنتَ الإنسانيّة

أنت الإنسانيّة بكاملها.

أنت أَلِفها وياؤها. منك تتفجّر ينابيعها. وإليك تجري. وفيك تصبّ.

أنت حاكمها ومحكومها. وظالمها ومظلومها. وهادمها ومهدومها.

أنت واهبها وموهوبها. وناكبها ومنكوبها. وصالبها ومصلوبها.

أنت فقيرها وغنيها. وضعيفها وقويها. وظاهرها وخفيها.

أنت جلاّدها ومجلودها. وناقدها ومنقودها. وحاسدها ومحسودها.

أنت رفيعها وخسيسها. وأثيمها وقدّيسها. وملاكها وإبليسها.

أنت ابن كلّ أبٍ وأمّ. وأبو كل أخ وأخت. وأنا كائناً من كنت، لا مهرب لي منك. ولا لك مني. لأنّك أنا. وأنا أنت وكلانا الإنسانيّة بأسرها.

لولاك لما كنتُ كما أنا. ولولاي لما كنتَ كما أنت.

ولولانا لما كان سوانا كما هو.

لولا الذين سبقونا لما كنّا، ولولانا لما كان في رحم الزمان إنسان.

أفي قلب جارك سعادة؟ ـ ألا فاغتبط بسعادته لأن في نسيجها خيطاً من نسج روحك. وما همّك أرأت عين جارك ذلك الخيط أم لم ترَه. فالعين التي ترى كلّ شيء تراه.

أفي قلب جارك حرقة؟ ـ فليحترق قلبك بها لأن في نارها شرارةً من موقد بغضك وإهمالك.

أفي عين جارك دمعة؟ ـ فلتدمع بها عينك لأن فيها ذرّة من ملح قساوتك.

أعلى وجه جارك بسمة؟ ـ فليبسم لها وجهك لأن في حلاوتها شعاعاً من نور محبتك.

أجارك في السجن لجريمة اقترفها؟ ـ ألا فأرسل بعضاً من قلبك معه إلى السجن لأنّك شريكه في جريمته وإن لم تحاكمك السلطة المشروعة بشرائِعها ولم يقضَ بسجنك رجل مثلك.

* * *

أمس رأيتك ترقص وتصيح في الناس: «صفقوا! صفّقوا!» ألست ترى أن الحياة الجذلة فيك لا ترقص إلاّ إذا صفّق لها جذل الحياة في سواك. فما بالك لا تصفّق عندما يرقص الغير؟

أمس سمعتك تشكو وتنوح: «اسمعوني أيها الناس. أنصفوني أيها الناس. فأنا مظلوم».

وممّن تودّ أن ينصفك الناس إلاّ من أنفسهم؟ فإذا كنت تشكو الناس للناس فعلامَ لا تصغي لشكواهم منك وتنصفهم من نفسك؟

أمس رأيتك تحصي أرباحك. وتربّت نفسك معجباً بدهائك وما سمعتك تقول: «هذا ما أكسبنيه الناس». واليوم رأيتك تحسب خسائرك لاعناً دهاء غيرك. وسمعتك تقول: «هذا ما سلبنيه الناس». أوَ لا تخجل من أن تكون في الحياة شريكاً «مضارباً»؟

أنت الإنسانيّة بكاملها عرفت ذلك أم جهلته. وأنا صورتك ومثالك. فأين تهرب مني إلاّ إذا هربتَ من نفسك؟

وإن أنت هربت من نفسك ـ فمن أنت؟

ميخائيل نعيمة ـ المراحل

الآن

غداً أردّ هباتِ الناس للناسِ
وعن غناهمُ أستغني بإفلاسي
وأستردّ رهوناً لي بذمّتهم
فقد رهنت لهم فكري وإحساسي
ورحت أتجر في أسواق كسبهم
فما كسبت سوى هم ووسواس
وكم فتحتُ لهم قلبي فما لبثوا
أن نصّبوا بَغلَهم في قدس أقداسي

غداً أُعيد بقايا الطّين للطينِ
وأُطلق الروح من سجنِ التخامينِ
وأترك الموت للموتى ومَن وَلَدوا
والخير والشرّ للدّنيا وللدين
وألبس العري درعاً لا تحطّمه
أيدي الملائك أو أيدي الشياطين
فلا تروّعني نار الجحيم ولا
مجالس الحور في الفردوس تغريني

غداً أجوز حدود السمعِ والبصرِ
فأدرك المبتدا المكنون في خبري

فـــــلا كـــــواكـــــب إلا كـــــان لـــــي سُـــــبُـــــلٌ
فـــــيـــــهـــــا، ولا تـــــربـــــة إلا بـــــهـــــا أثـــــري
لـــي فـــي الـــقـــضـــاء قـــضـــاءٌ والـــمـــنـــون مـــنَـــى
وفـــــي مُـــــلاحـــــمَـــــة الأقـــــدار لـــــي قـــــدَري

غـــداً؟.. ولا أمـــس لـــي حـــتـــى أقـــول غـــداً
فَـــلـــتـــمـــحـــهـــا «الآن» مـــن نـــطـــقـــي ومـــن فـــكـــري

ميخائيل نعيمة ـ همس الجفون

مبدئي

لي منية غير الشهرة والمجد، غير الثروة والغنى، غير السرور والسعادة. منيتي الأولى أن أكون بسيطاً في أعمالي. صادقاً في أقوالي مستقيماً في آرائي طبيعياً في تصرفي، وبكلمة أن أكون نظيف العقل والقلب والجسم، بعيداً عن التصنع والصلف والزخرفة، بعيداً عن الخوف والجبانة والخجل، بعيداً عن الرياء والتدليس والكذب. أريد أن أتقبّل كل ما يقابلني من الصعوبات في طريق الحياة بثبات وصبر.

أود أن أعيش دون أن أبغض، وأحب دون أن أغار، وأرتفع دون أن أترفع، وأتقدم دون أؤخر من هم دوني أو أحسد من هم فوقي. هذه هي سنتي، وللغير أن يتخذوا لهم سنة توافقهم. للغير أن يتخذوا نفس الخطة إذا شاؤوا أو استطاعوا. ليس من شأني أن أتدخل في شؤونهم أو أن أعظهم متهدداً أو أرشدهم منذراً.

عليّ أن أعيش صادقاً مسالماً مستقيماً، وعليهم أن يعيشوا كما يطيب لهم. ولكن الواجبات التي أطلبها لنفسي هي واجبة لكل فرد على الإطلاق في كل مكان. وكما أنني أعترف للغير بهذه الحقوق والواجبات أحب أن يعترف لي الغير بها أيضاً.

لا أريد أن أنصح متى كانت نصيحتي غير مطلوبة، ولا أن أساعد متى كانت خدمتي غير لازمة. وإن كنت قادراً على إسعاف أحد أفعل ذلك بطريقة تدفع طالب الإسعاف إلى العمل فيسعف نفسه. وإن كان فيَّ ما يلهم الناس إلى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الترقي العقلي الروحي، أريد أن أظهره بالمثل والإشارة والاستنتاج وليس بالتبشير والتهديد والتأمر.

أحب أن تشعشع حياتي ولا أحبها أن تفرقع.

أمين الريحاني ـ التطرّف والإصلاح

من قصيدة «النجوى»

يا ذا الجلال الأزلي، ألحفني بشيء من جلالك
يا ذا النور الدائم، أمددني بقبس من نورك
يا ذا القوة غير المتناهية، ابعث منها في قواي

❊

أنا مبدأ الحياة الأزلية، وعين الحب والقوة
وإني حي فيك، عليم بنجاويك
أنت الحياة بأجمعها، أولاً وآخراً، وإني لأحيا بك
أنا مصدر الإدراك البشري
وسأزيدك إدراكاً بأنك جزءٌ مني
ساعدني اللهمَّ لأجمع قواي الروحية، والعقلية،
والجسدية في سبيل الحق والحب والحكمة
إني أيها الإنسان مصيخ إليك، مطلق يديك، منعم عليك
أيها الينبوع السرمدي
المنبعثة منه أنوار الحب
المتدفقة منه مياه الحياة والعافية
إني أفتح لك عقلي وقلبي، وأبسط أمامك روحي
فلا تحرمني فيض مكارمك، ولا تبعدني عن ينابيعك. . .

أمين الريحاني ـ هتاف الأودية

من قصيدة «الطلاسم»

جئت لا أعلم من أين، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجود
هل أنا حرٌ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنى أنني أدري ولكن

لست أدري

وطريقي ما طريقي؟ أطويلٌ أم قصير؟
هل أنا أصعدُ أم أهبط وأغور
أأنا السائرُ في الدرب أم الدربُ يسير
أم كلانا واقفٌ والدهر يجري؟

لست أدري

ليتَ شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتراني كنتُ أدري أنني فيه دفين
وبأني سوف أبدو وبأني سأكون

أم تـــرانـــي كـــنـــتُ لا أدرك شـــيـــئـــاً؟ . . .

لستُ أدري

*

أتــرانــي قــبــلــمــا أصــبــحــتُ إنــســانــاً ســويّــا

كــنــتُ مــحــواً أو مــحــالاً أم تــرانــي كــنــتُ شــيّــاً

ألــهــذا الــلــغــز حــلٌ؟ أم ســيــبــقــى أبــديّــاً

لــســتُ أدري . . ولــمــاذا لــســتُ أدري؟ . .

لستُ أدري

إيليا أبو ماضي ـ الجداول

من كتاب «غلواء» ـ العهد الثالث

التجلّي

إجرحِ القلبَ واسْقِ شعركَ منهُ ... فدمُ القلبِ خمرةُ الأقلامِ

مصدرُ الصّدقِ في الشّعورِ هُوَ القلبُ ... وفي القلبِ مهبِطُ الإلهَامِ

وإذا أنتَ لَمْ تُعَذّبْ وتغْمِسْ ... قلماً في قرارةِ الآلامِ

فقوافيكَ زُخْرُفٌ وَبَريقٌ ... كعِظامٍ في مدفنٍ مِنْ رُخَامِ

إذا القلبُ لمْ يُرَقَّقْ بحبٍّ ... حجَّرتهُ ضغائِنُ الأيّامِ

والهوى دونَ أكبُدٍ ليسَ يحيَا ... فغذاءُ الهوى مِنَ الأجسَامِ

ضَحِّ بالقلبِ إنْ هَوِيتَ فليسَ ... القلبُ إلا وليمةً للغَرامِ

يا لها في الهوى وليمةَ قلبٍ ... سوف يبقى لها صدىً في الأنامِ

وَاشْقَ ما شِئْتَ فالشّقَا مُحْرَقَاتٌ ... صعدتْ مِنْ مذابحِ الأرحامِ

ربّ جرح قد صار ينبوع شعرٍ ... تلتقي عنده النفوس الظوامي

وزفيرٍ أمسىَ ـ إذا قدّسته الروح ... ضرباً من أقدس الأنغامِ

وعذابٍ قد فاح منه بخورٌ ... خالدٌ في مجامر الأحلامِ

الياس أبو شبكة

القمر

من روابينا القمرْ.

جاءه، أم لا، خبرْ؟

جايلته رِنْدَلَى،

ودمى الحسن الأخرْ.

طال ما فاجأنه

حافياً فوق الزهرْ؛

مزّقت من ثوبهِ

نزوات لا تَذَرْ.

هُمَّ؟ ما هُمَّ، ومِن

غزْلِنا يُكْسى القمرْ.

العذارى، حوله،

في الربى عِقد شررْ!

ضحكة طافرةٌ،

ونشيدٌ في الأثرْ.

والمساء المنتحي

بعضَ هاتيكَ الصُّوَرْ

ذاهلٌ، شال به

صوت نايٍ مبتَكَرْ؛

والروابي نهضت

فوق تجواب النظرْ.

يا ترى العمر قمرْ؟

سعيد عقل - رندلى

مقتطفات من «كتاب الورد» لسعيد عقل

رأيتك... «أنتِ الجمال» قلت؟

لا وإنما غفرتُ للدنيا زلازلها والحروب، لأن عينيك ذات يوم وقعتا عليها.

* * *

اليوم ولدتُ في الشعر.

زارتني عيناك.

وفي أذني دحرجتا لي أكراً من كلماتك، فيها النار والربيع.

وفيها أنتِ.

* * *

مزهوَّة بي، فرحة، شهدتُكِ صبيحة أمس.

لكنك، وأنت في جنّات سهلنا، تلك التي آثرتْها أفروديت على الأولمب، وفي غاباتها أحبَّت أدونيس، لم تستهدي الشمس تتسرّق النظر إلى جسمك الإلٰهي ثم تغمز النجوم...

* * *

ـ لا تنتظرني هذا المساء، يا حبيبي...

أختي الكبيرة متعبة، وسأتولّى وحدي سقاية سياج الورد.

ـ دعي سياج الورد يذبل، يا حبيبتي... إنه هو الذي يمنعني من القفز إلى حديقتكم في ليلة حرّ، وقد غاب القمر.

بيروت هل ذرفت عيونكِ دمعةً　　إلاّ ترشّفها فؤادي المغرمُ
أنا من ثراك فهل أضنّ بأدمعي　　في حالتيك ومن سمائك أُلهَمُ
كم ليلة عذراء جاذبها الهوى　　أنا والعنادل والرّبى والأنجمُ
فَدَتِ المنائر كلُّهنَّ منارةً　　هي في فم الدنيا هدىً وتبسّمُ
ما جئتَها إلاّ هداك معلّمٌ　　فوق المنابر أو شجاك متيّمُ
بيروت يا وطن الحضارة والنّهى　　الحبّ يبني والجفاء يُهدّمُ

من قصيدة «بيروت» للأخطل الصغير

الأوهام وتولّدها وتموّها

أخبرنا صديق صادق، رفيع المقام، أنه يعرف رجلاً إذا سألته أن يحضر لك نوعاً من الفاكهة، تفّاحاً، أو موزاً، أو برتقالاً، مدّ يديه في الهواء، وأعادهما مملوءتين بالفاكهة التي طلبتها، وقال: إنه رآه يفعل ذلك عياناً. وطلب منه مرّة أن يأتيه بخمسين جنيهاً فمدّ يديه في الهواء، وأعادهما مملوءتين بالذهب. ولا شبهة في أنّه قصّ علينا ما يعتقد صحّته، ولكن هل هو صحيح لذاته؟

نحن تجاه هذا الخبر بين أمرين، إمّا أن نصدّق أن بعض الناس يستطيعون أن يقطعوا الأثمار من الهواء، وأن يستخرجوا منه الذهب المسكوك، وإمّا أن نسلّم بأن بعض الناس يتوهّم أنه رأى ما لا حقيقة له.

أمّا الأمر الأوّل فينفيه اختبار البشر في كلّ العصور وكلّ البلدان. . .

وأمّا الأمر الثاني أو الفرض الثاني، وهو أن يتوهّم الإنسان أنه رأى ما لا حقيقة له، فكثير الوقوع، وما من أحد إلاّ ويرى كلّ يوم في أحلامه أموراً كثيرة لا حقيقة لها، وكثيراً ما يتخيّلها وهو صاحٍ. . .

وبديهيّ أنّنا إذا كنّا بين فرضين أحدهما مناقض لاختبار الناس في كلّ العصور والآخر لا يناقضه الاختبار، بل يؤيّده، وجب علينا أن نأخذ بالفرض الثاني لا الأوّل.

يعقوب صرّوف

المراجع

ــ **تاريخ لبنان** ـ فيليب حتّي، دار الثقافة ١٩٦٨.

ــ **جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة** ـ مؤسسة نوفل، ١٩٧٨.

ــ **الغربال** ـ ميخائيل نعيمة، دار صادر ـ بيروت، ١٩٦٤.

ــ **في الغربال الجديد** ـ ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٧١.

ــ **المراحل** ـ ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٧١.

ــ **همس الجفون** ـ ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، ١٩٨٨.

ــ **دمعة وابتسامة** ـ جبران خليل جبران،

ــ **العواصف** ـ جبران خليل جبران،

ــ **البدائع والطرائف** ـ جبران خليل جبران،

ــ **التطرّف والإصلاح** ـ أمين الريحاني، مطابع صادر ريحاني، ١٩٥٠.

ــ **هتاف الأودية** ـ أمين الريحاني للطباعة والنشر، ١٩٥٥.

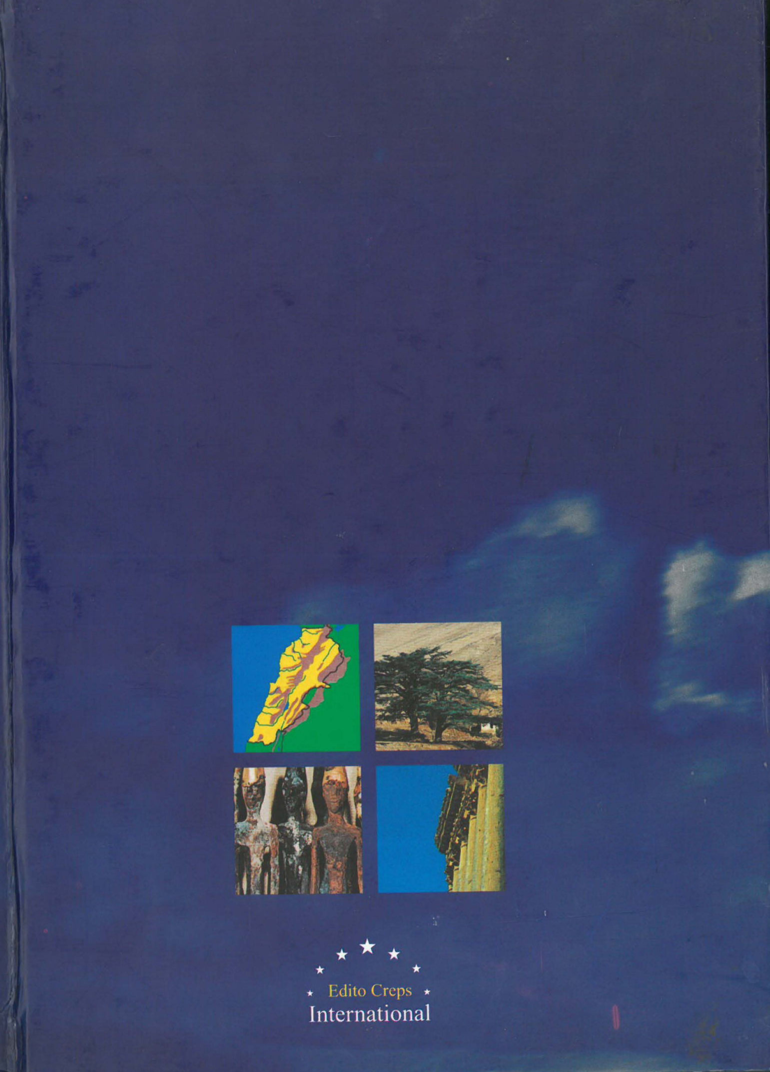
ــ **الياس أبو شبكة في غلواء** ـ سامي ج خوري وإلياس رحيّم، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٠.

ــ **الجداول** ـ إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين، ١٩٧٠.

ــ **رندلى** ـ سعيد عقل، منشورات نوفل، ١٩٧١.

ــ **كتاب الورد** ـ سعيد عقل، مكتبة نداف، ١٩٧٢.

المحتويات


Edito Creps
International